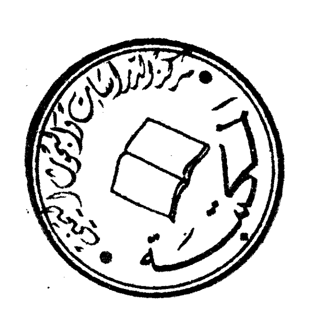
الامة العربية والتحدي

الدكتور
نزار عبد اللطيف الحديثي



الأمة العربية والتحدي

المقدمة

كيف ننظر الى تأريخنا القومي ؟ وكيف نفهمه في مساره العام ؟ كيف نفهمه في مجال علاقة الامة العربية بغيرها من الامم ؟ تلك هي الموازنة التأريخية والفكرية التي اولاها بعض مفكري العرب اهتماما خاصا ، وحاولوا ان يعقدوا مواكبة تامة بين الفكر والممارسة ، ويتوقف على فهم هذه الموازنة تأصيل سمات خاصة في الامة العربية ارادت عصور التخلف والقوى المحتلة طمسها واقتصرت نظرة العرب في التاريخ الحديث اليها على الشكل دون تمثل وادراك عمقها الفلسفي والسلوكي مما يضع الامة ازاء معضلة انعدام الوعي التأريخي العميق وما يترتب عليه من اعتناق الامة افكار وقناعات تهددها بفقدان احدمكوناتها الجوهرية ويحدث شرخا في تأريخيتها ، ويدفعها باتجاه موقف في العلاقة مع غيرها وفي فهمها للعلاقات الانسانية هو منزلق حقيقي ينتقص من عظمة الامة ويفقدها بعض خصوصياتها وتميزها . وترتكز هذه الموازنة الى عنصرين اساسيين هما تأريخية الامة العربية وما رافق نشأتها من خصائص ، والثورات الفكرية التي شهدها تأريخ الامة ، وفهم هذين العنصرين اساسي في فهم موقف الامة من العالم وموقف اطراف عديدة في العالم من الامة .

مارست امتنا العربية بفعل موقع وطنها الوسط في العالم دور الامة الوسط بين البشر على مساحة زمنها ، وترك هذا الدور أثاره في مسيرة الامة ودورها الحضاري ، ولعمق احساسها بهذا الدور الوسط اعطته كل امتداداته وتفاصيله حتى شمل كل جوانب العملية الاجتماعية والابداع الاجتماعي بشكل

خاص ، ومن يتصفح المدونات الاولى في مجال المعتقدات الدينية والملاحم الادبية والعقود التجارية ،او يستعرض حركة الامة التأريخية القومية الخاصة، والعالمية العامة ،يجد شواهد كثيرة تدعم تلك الممارسات وترتقي بها الى مستوى عال من الشعور بالمسؤولية الانسانية ، وفي هذا المجال يعطي تطور ديانة التوحيد حتى بلوغها قمة نضجها في الاسلام ، وفي حركته الفكرية وبناءه الحضاري وما استجد في العصر الحديث لبناء عقيدة حزب البعث العربي الاشتراكي ليس الصياغة النظرية لفهم الامة العربية للعلاقات الانسانية فقط وانما شكل الممارسة المطلوبة ايضا •

لقد ابتكر العراقيون القدماء ابرز ثلاثة مبتكرات في حياة البشرية هي الكتابة والعجلة والقوانين وعمموها بشريا ، ويظهر التعميم في شكل حلقات منداحة تنتشر بؤر التقاطها في شكل مراكز حول المركز المبتكر ، وجاء الاسلام واخذت انسانية الامة عامة وفهمها للعلاقات البشرية خاصة بعدها الفلسفي الواضح • وقد عززت الآية الكريمة « كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » دور الامة العربية القيادي في المجال الحضاري بين الامم جمعاء ، فلم يعد العمل الانساني جزءا من الرسالة التأريخية للامة حسب انما واحداً من مقاييس حضاريتها ووسائلها في التعبير عن تلك الحضارية ، وقد عبر العرب عن فهمهم لهذا الدور في شكل حركة ثورية تنشد تغيير كل المظاهر التي جعلت حياة البشرية لا انسانية • وفي صدر الاسلام تحدد هذا الدور في ذهن المقاتل العربي في شكل نزوع طبيعي واستعداد دائم للعمل الانساني « الله جاء بنا لنخرج من شاء من عباده من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » وتناول المفكرون هذا الاستعداد بالتنظير وقدم ابن قتيبة صياغة عامة لتأريخ الامة في ضوء تنظيره لهذا الاستعداد عندما اكد تساوي البشر بانتسابهم الى آدم وقوله في معرض المقارنة بين العرب والفرس : « ثم تتساوى العرب وفارس في ان الفريقين ملكوا وتفضلها العرب بأن قواعد

ملكها نبوة وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة» واخذ هذا الاستيعاب تفاصيله في الدور العظيم لمفكري العرب في نقل التراث اليوناني والروماني واعادة تقديمه للبشرية في مستوى علمي وفكري جديد •

تجلت انسانية العرب في اهتمامهم بالانسان وتنمية قدراتـه ومواهبـه واتاحة الفرص لتفجر ابداعه ، وتنمية حسـه الذوقي ونظرته الـى الحيـاة ، وعكست سياستهم في التعامل مع رعايا الامبراطوريات الوثنية المنهزمة هذا الاهتمام ولاسيما في انجاز تحضر اولئك الرعايا واتاحة فرص التمدن والتملك لهم ، وعندما نشأت « مدرسة المدينة المنورة » في القرن الاول الهجري لم تهمل استقبال طلاب العلم من مختلف الامصار والنـواحي ، وعندمـا استكملت الحركة الفكرية مستلزمات بنائها بأنتشار المدارس في البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط والقيروان ومن ثم بغداد ، استمرت حلقات اتساعها لتشمل اراضي اوسع تقع خارج نطاق الوطن العربي ، لقد ادى العرب هذا الدور في شكل تمثل لقيم التأريخ العربي قبل الاسلام وتواصل معه وتحديد الشكل المطلوب للتجدد والمعاصرة •

استمر الجهد الحضاري وتكامل عبر القرون الثلاثة الاولى واصبحت الامة قادرة على الانتقال في الفعل الحضاري من الممارسة الى التنظير وامتدت قنوات التواصل الحضاري عبر سردينيا وصقلية والاندلس ، واصبح البناء الحضاري من القوة بحيث استطاع ان يحتوي الكثير من الحملات التي تعرضت لها الامة العربية ، فتحضر السلاجقة والترك عندما احتكوا بالعرب ، ونهلوا من المدن العربية والحواظر الاخرى حاجتهم الى التمدن ، ولم يكن حظ الصليبين اقل منهم ، وظهر هذا الدور في احتواء المغول ، واذا كان المغول وثنيين حتى انسياحهم ودخولهم بغداد ولهم العذر فالصليبيون جاءوا من اوربا المسيحية وعندما ادركوا ان الدوافع ليست في العامل الديني ووجدوا مسيحيين عربا يقاتلون ضدهم لم يهملوا فرصة الافادة الحضارية والعودة الى بلادهم ومعهم خبرة يمكن توظيفها اجتماعيا وتلافي مرحلة الاغتراب التي عاشوها بعيدا عن مجتمعاتهم •

احتلت الامة العربية بسبب هذه الخلفية من العمل الانساني مكانة بارزة بين الامم المتحضرة وتميزت بقدرتها على الحوار وتبادل التأثير الحضاري مع الامم ، ولعل هذا أحد اسباب عظمتها في اداء رسالتها ، فهي الامة التي ارست اول مرة الحقيقة القائلة بأن تأريخ البشرية هو نتاج فعل البشر (بني آدم) • غير ان هذا الموقف الحضاري والحوار القائم على التفاعل والتأثير المتبادل جوبه بموقف لاحضاري من اطراف متعددة ، وفي احيان كثيرة تطورت المجابهة الى حالة من الصراع استغرقت زمنا طويلا وشملت كل تفاصيل الحياة، تنوعت فيها الوسائل وتعددت الصيغ وشهدت اغرب موقف تمثل في التقاء عـدة قوى في آن واحد في الصراع ضد الامة العربية ، وقد قدمت الاجهزة الثقافية للقوى المعادية مبررات وتفسيرات متعددة لحالة الصراع هذه تبناها مفكرون وكتاب من مختلف التخصصات وتداولوها واستلهمها الكثير من كتابنا قناعات شبـه نهائية ، ومهما قيل في كل ذلك يبقى الصراع بين الامة والاقوام الاخرى بعيدا عن الاستيعاب الحقيقي القائم على نظرة سليمة شاملة عميقة ، والآن وامتنا في انبعاث جديد يحتل الفكر فيه موقعا مهما تصبح مسألة تكوين نظرة سليمة الى حالة الصراع بين الامة وغيرها عبر التأريخ انجازا ثوريا بالغ القيمة ، فأضافة الى ان المعرفة التأريخية تسهم في تكوين الوعي الاجتماعي فأن استيعاب حالات الصراع في التأريخ ، وفهم طبيعته واتجاهاته مسألة ضرورية لكشف مواطن الضعف والقوة في حركة الامة ، ومعرفة ستراتيجية خصومهـا وفلسفتهم في ادارة الصراع ، وكفاءة الفكر العربي في التعامل اثناء الصراع دون ان نهمل صياغة الموقف من الصراع والموقع فيه • أن تكوين مثل هذه النظرة ضروري لتنشيط الذاكرة التأريخية وتجنب الوقوع في منزلق التساهل والتجريب المجرد غير الهادف ، اضافة الى اثره في تعزيز النظرة التحليلية للمستقبل •

وفي كل حالات الصراع تبدو ستراتيجية الخصـم وفلسفتـه في ادارة الصراع ضد الامة العربية متمحورة على « التجزئة » فالاختـراقات الاولـى للسيادة العربية التي نجحت في تحقيقها هجمات الاقـوام الشـرقية الغازيـة

وبسطها سيطرتها على اجزاء من الوطن العربي كشفت دور التجزئة في الاضعاف العام للامـة ، غير ان التجزئة لم تصبح هدفا بذاته الا في عهد الاسكندر فهو لم يمارس التجزئة للاضعاف الستراتيجي الحضاري القومي حسب وانما لالغاء الهوية الحضارية والقومية للوطن العربي ايضا عندما لجأ من خلال التجزئة الى الحاق اجزاء من الوطن العربي بولايات ضمت اراضي غير عربية كانت الادارة فيها تمارس من محتل ، ومن مركز يقع خارج الوطن العربي • ومنذ ذلك الوقت اصبحت سياسته موضع اهتمام كل قوى الاحتلال ، وعند الرومان تطورت المسألة الى حد الاحتواء الحضاري والايديولوجي عندما اعتنقت الامبراطورية الرومانية النصرانية المحرفة وسعت الى تعميمها في مناطق احتلالهـا العربيـة ، وكانت هذه السياسة معتمدة وموضع تشجيع (القوى الحاقدة) طوال الزمن العربي منذ القرن الثالث الهجري ، وعمل على تحقيقها الاوربيون في المرحلـة الاستعمارية التي بسطت نفوذها على الوطن منذ القرن الخامس عشر والـى الآن ،وفي مستهل القرن العشرين تحولت التجزئة الى علم قائم بذاته فلجنـة كامبل بنرمان[1] التي ضمت ابرز الاختصاصيـين الاوربيـين ارسـت اسس علمية للتجزئة ، لقد اتاح لها وقوفها على الوقائع الوحدوية في التأريخ العربي ودراستها شؤون العرب ارضاوامة وتأريخاكشف اهميةوخطورة الوحدةالعربية، وادركت ايضا اهمية تحويل سياسة التجزئة بالنسبة الى الاوربي الى قناعـة تامة يعمل بوحي منها ، وقد عمل بها فعلا مفكروا اوربا في كل المجالات ولعل دراسات فلهوزن في الادب وميور في التأريخ وابحاث رجال الاثار الاوربيـة شواهد حقة فيهذا المجال، ففي كتابه عن الادب يروج فلهوزن للنظرية القائلةان المدارس الادبية في التأريخ العربي ليست تعبيرا عن موقف ادبي وانما تعبـير عن نمط في الحضارة والمجتمع ، ويرى ميور في الاحزاب السياسية العربية تعبيرا عن حالة من الاقتران السياسي والاجتماعي بل والاسري فوضع تقسيمه

---

١ ـ كامبـل بنرمـان رئيـس حـزب الاحـرار رئيـس وزراء بريطانيـا (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧) .

المشهور (الراشدي ــ الاموي ــ العباسي ــ العلوي .. الخ) . وفي دراسات الاثاريين استحال النسيج الواحد من الجغرافية والتراكم المعرفي النامي والمتواصل للانسان في الوطن العربي من حالة الفعل المشترك والصيرورة الواحدة الى حالة الاجزاء المتنافرة العائمة في بحر من التنافر واللاوحدة .

سجل العرب عبر تطورهم التأريخي اهتمامهم بالكل والانطلاق من نظرة شمولية الى الكون والاشياء التي تنتظم فيه، وكان جل اعتقادهم ان الوصول الى مثل هذا الموقف يحتاج الى حالة من التفجر في الابداع والابتكار والمشاعر الانسانية عند الانسان، وعدوا كل مظاهر البناء امرا لاحقا لعملية التكون هذه، وتعكس حالة الملك نابونائيد[٢] هذه المسألة بعمق فعنده لم تكن الدولة هي المهمة ، انما الاستيعاب الحضاري هو المهم ، وهو القادر فيما بعد على ان يخلق الدولة، لذلك اتجه الى التبشير بالتغيير والتجديد تاركا الدولة. عبر هذاالسعي جاءت هجمة الاقوام المادية منفرس واوربيين وكانت المفاجأة كبيرة فقداسقطت الدولة وبسط الاحتلال نفسه على اطراف الوطن العربي الشمالية ليعزلها عن ميدان النشاط الحضاري الذي اعتادت ان تتحرك فيه (البحر المتوسط) ويفرض عليها الانكفاء ثم يبدأ بهدمها وهي محاصرة مستخدما الزحف العسكري والتخريب في الثقافة والفكر والسلب الحضاري والاقتصادي .

اتسم تقدم القوى الاجنبية صوب الوطن العربي ، بالتوجه صوب جوهر الحركة الفكرية (المعتقدات والثقافة ووسائلها) ، وهذا يعني ان الدوافع في التحدي كانت حضارية تهدف الى الغاء الدور الحضاري وشل الفاعلية الحضارية وتعطيلها في الامة، واول الامر اتجهت الجهود لتدمير النقطة التي تشكل جوهر الدور الحضاري السياسي (الدولة) وهي المهمة التي انجزها الهجوم الاخميني على بابل ثم مصر ، اما المرحلة الثانية من الجهود فقد تركزت على الغاء الفرص المستقبلية لاي نشاط حضاري وذلك بتجزئة الوطن لكون وحدته

---

٢ ــ نابونائيد ملك بابل عندما غزاها الاخمينيون ٥٣٩ ق . م كان قد ترك بابل وانحاز الى تيماء في شبه جزيرة العرب .

أحدعناصر النشاط الحضاري لانهاتضع الأمةفيوضع طبيعي، فحروب الاسكندر احدثت اول خلل في البناء الجغرافي الستراتيجي للوحدة بتجزئة الوطن العربي الى دويلات والحاق بعض اطرافه بدويلات تشكلت خارج حدوده ، أما فيما بعدفقدمارس كلاالاحتلالين الساساني والبيزنطي مهمةتطويع العقليةالعربيةوجرها الى مشارب بعيدة عن جوهر تكونها بالدورالذي أدياه في تحريف المعتقدات العربية ، ولكن عبر مرحلة الاختراق هذه بين ٥٣٩ق٠م الى الثورة العربية في الاسلام كانتالامة تستجمع كلمقوماتها ومكوناتها التاريخية للنهوض القومي٠ وعندما نجح الرسول القائد (ص) في بناء القاعدة الثورية في المدينة واحتواء جزيرة العرب كلها قام خلفاؤه بأروع جهد قومي وانساني تمثل في سعيهم لتصحيح الخلل الذي صنعته الاقوام المادية فحروب التحرير كانت بمستوى اصلاح مسار التأريخ العربي والانساني واعادة الامور التي حرفها الاسكندر الى نصابها ٠

غير ان تلك الممارسات بقيت نهجا ثابتا في سياسة القوى المحتلة ، فقد استمرت عملية تحريف الاديان وتشتيت المجتمع وطمس قيمه وتقاليده ٠ وفي المرحلة الاستعمارية الجديدة بدءً من سقوط بغداد ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) وحتى الوقت الحاضر لم تختلف سياسة القوى المحتلة الا في التفاصيل ، فقد استمر العمل ضد الوحدة الثقافية والادب ووسيلتهما اللغة العربية جنبا الى جنب مع عملية الاغراق البشري للمجتمع العربي بهجرة العناصر الغريبة عن المجتمع الى مصر والعراق والخليج العربي والمغرب وجنوب الجزيرة والسودان ٠ غير ان التطور الواضح في سياسة الاستعمار تمثل في امرين هما ٠ الاحتواء الايديولوجي وستراتيجية التجزئة كما تفعل اوربا رأسماليا وشيوعيا، والاخيرة بشكل خاص اصبحت منذ اواسط القرن ١٩ علما قائما بذاته ٠ علم تجزئة الامة العربية الذي بلغ ذروته في مستهل القرن العشرين كما ارسته العقلية البريطانية من خلال لجنة كامبل بنرمان ٠

رافق الصراع القومي في التأريخ العربي صـراع اجتماعي في البنيـة الاجتماعية للمجتمع العربي ، فعلى مر العصور كانت هناك شرائح اجتماعية ارتبطت بالقوى الخارجية بأرتباطات متنوعة ومختلفة دينية وثقافية وسياسية واجتماعية . فقد مارس الاحبار اليهود المحرفون تعصبا دينيا شجعوه بكل قوتهم تسبب في ايجاد طائفية في نجران ارتبطت بالحملـة الحبشية وكانت طليعتها متجاوزة لضرورات الامن القومي . وكان هناك رؤساء قبائل ارتبطوا بالقديم وتحالفوا معه ضد المستقبل وضد سعي الامة لتجاوز التخلف ، وتجار ارتبطوا بالسوق الدولية وفئات لم تعتنق مذاهب الدول المحتلة حسب انما اعتنقت تقاليدها وارتضت ان تلحق نفسها بها . كان هذا الوضع قائما قبل الاسلام وتكـرر في الاسلام فتخريب الفرس اوجد طائفية عربية مسلمة واستعلاء الاوربيين اوجد طائفية عربية مسيحية ونهضة اوربا اوجدت وسطاء وعملاء تجارة عربا اصبحوا ممر النفوذ الاستعماري الاوربي ، والايديولوجيات الاوربية المعاصرة اوجدت لها اصداء وامتدادات عربية وكل هذه الشرائح تتحرك بوحي ارتباطاتها دونما وعي بأمنها القومي أو بمستلزمات شخصيتها القومية .

اذن تعددت قوى التحدي وتنوعت ممارساتها بين قوى خارجية وقوى داخلية ، ورغم ظاهرة التناقض الواضحة في اصول هذه القوى ومصالحها غير ان الطابع العام لموقفها من العرب هو سرعة اتحادها عندما تصبح مجتمعة امام الامة العربية . فقد توحدت قوى العصر اوربية وآسيوية ضد محمد علي يوم اراد استخدام عوامل الوحدة في الواقع العربي لصالح مشروعه في بناء دولـة كبرى ، والتقت قوى العصر كلها ضد حق العرب في فلسطين وتلتقي يوميا في عملها ضد الوحدة العربية .

غير ان القرن العشرين شهد متغيرا خطيرا فاذا كانت هذه القوى في السابق تخطط وتتوقع لخططها قبولا عربيا فأنها في القرن العشرين جابهت حقـائق متعددة ، فقد اصبح التحسس القومي متقاربا الى حد كبـير ولم تنجح كل سياسات المرحلة الاستعمارية ان تجعل العرب يفكرون متباعدين وقد شكل

عاما ١٩ ،٢٠ في بداية هذا القرن حالة الثورة على مازرع الاستعمار من سياسات في الوطن العربي فقد ثارت مصر ١٩١٩ والعراق ١٩٢٠ وامتدت الثورة لتشمل سوريا والبحرين وفلسطين وليبيا والمغرب ، حتى يصح اعتبار عام ١٩٢٠ عام الثورة القومية. وحتى عندما فشلت هذه الثورة في تحقيق اهدافها فأن الانظمة المحلية التي ارتبطت بالاستعمار بمعاهدات لم تكن موضع قبـول لاهي ولا المعاهدات التي عقدتها ، وفي عام ١٩٣٦ كان واضحا ان الجماهير العربية ترفض تلك الانظمـة وتلـك المعاهـدات ، وممـا لاشك فيـه ان الحـركات السياسية التي مثلت صدى ضعيفا للوعي القومي كما تحقق قبل الحرب الاولى او تلك التي تولدت عنها وعن ظروف ما بعد الحرب ، أدت دورا مع المؤثرات العالمية في نمو مرحلة جديدة من الوعي ، ان لم تكن توجت بالثورة الشاملة فأنها تميزت بمتغيرين هما الثورة العربية الفلسطينية التي تأججت نارها منذ ١٩٣٦ وما زالت مستمرة . وظهور حزب البعث العربي الاشتراكي منذ أن ابتدأ افكارا في حوالي ١٩٣٩ الى ان اعلن عنه رسميا في المؤتمـر القـومي التأسيسي الاول سنة ١٩٤٧ ، ومنذ تأسيس حزب البعث العـربي الاشتراكي بدأت السياسة الاستعمارية تواجه رفضا عربيا منظما . فقد ظهر الحزب اصـلا تعبيرا عن موقف قومي مستقل وطريق خاص في الثورة عقيدة ومنهجا ونضالا فكان لابد ان يوجد حالة من التعبئة المضادة لسياسة الاستعمـار والقـوى الكبرى ، وان ينتقل بالعقلية العربية من العفوية في الفعل والسطحية في الوعي وحالة ضعف الايمان في المجابهة ، الى الوعـي العميـق والايمـان الصلب والمجابهة العلمية والثورية ، وجاءت احداث ١٩٤٨ وضياع فلسطين وقيـام الكيان الصهيوني لتعزز قناعة الحزب بحاجة الامة الى ثورة تثّور الامـة واوضاعها ، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والتقت مصـر مع مبـادىء البعث واقتبست منها الكثير حدثت نقلة في تأريخ حركة القومية العربية عززت تأريخيتها وعززت الثقة اكثر بمستقبلها فعروبة مصر اسقطت مراهنة تأريخية طويلة على امكانية تحويل الخلفية الحضارية لقطر من اقطار الوطن العربي الى

بديل لانتمائه القومي • لقد اخذت مخططات الاستعمار طابعا اتسم بالعمق والشمول والحلقات المتتابعة ، كلما تأصل الدور القيادي لحزب البعث العربي الاشتراكي ، في محاولة لمنع هذا الدور والحيلولة دون نجاح نظرية الطريق الخاص في الثورة وتيئيس الانسان العربي وكان تخريب العلاقة بين الحزب وعبدالناصر جزء من تلك المخططات ثم تلتها عملية الفصل بين الحزب في مقر ولادته (سوريا) وبين فروعه خاصة (العراق) بتشجيع تسلط زمرة ٢٣ شباط على مقدرات الحزب في سوريا وتأدية هذا الدور التخريبي في الحياة السياسية العربية • وعندما انتزع الحزب لنفسه قيادة العراق بثورة ١٧ — ٣٠ تموز ١٩٦٨ وباشر عملية التحول الاجتماعي لبناء القاعدة القائدة للنضال القومي ، ظهر واضحا حجم الاستنفار في القوى المضادة ، فقبل هذا التأريخ كان الامل يحدو تلك القوى بقدرتها على ثني نضال الحزب ، ولكن عندما يباشر الحزب عملية التحول الاجتماعي وتوضع افكاره ومبادئه موضع التطبيق وتصاغ نظرية العمل البعثية التي تستوعب هذا الفكر في عملية احتواء مباشر للواقع العربي فأن فرص تلك القوى في ثني نضال الحزب تصبح قليلة جدا وقد كشفت مسيرة السنوات المنصرمة من عمر الثورة عن حجم القوة المضادة خارجية أو داخلية وحجم قابليتها على الالتقاء والعمل المشترك ، تلك القابلية التي ان دلت على شيء فتدل على مدى خشية القوى المضادة من انتصارات ثورة الطريق الخاص اضافة الى عقيدة الحزب ونهجه النضالي ، وتخشى هذه القوى ايضا الاثر الايجابي لسياسة العراق القائمة على التعامل المتكافيء واحترام السيادة القومية للدولة ، صحيح ان قادة الحزب يؤكدون بأستمرار على ان الحزب حزب قومي وان نظريته قومية مبنية على استكشاف التأريخ العربي ، وتشخيص الحزب للتناقضات في الواقع العربي وللظروف الموضوعية للثورة ، الا ان الاستعمار يدرك جيدا ان الحلقات المتاحة لتحرك الثورة تحمل الكثير من المؤشرات الدالة على مستقبل جديد للعلاقات الانسانية فالعراق بحكم عوامل التاريخ والجغرافية والظروف الناجمة عن المرحلة الاستعمارية

يتحرك في حلقات متعددة (عربية ، اسلاميه ، العالم الثالث) وهو لهذا قادر من خلال تجربته ليس فقط على تثوير اوضاع هذه الحلقات فقط بل واعطائها فرصة تجربة نظرية الطريق الخاص في التطور الاجتماعي والسياسي وفي الاستقلال الايديولوجي والسياسي ايضا ، وهذا يعني ان شعوب هذه الحلقات التي وجدت نفسها ازاء خيار التمسك بالتقاليد والبقاء اسيرة التخلف كما اوهمها الاستعمار او خيار نزع خصوصيتها وقبول الاحتواء الاوربي ، سوف تجد نفسها امام خيار جديد يؤمن لها الاحتفاظ بتأريخيتها واصالتها وتحقيق التقدم في الوقت ذاته • ومن هنا تصبح مسألة فهم ستراتيجية العداء للامة العربية في تأريخها الحديث والمعاصر اساسية لأمن توجهاتها المستقبلية التي هي جوهر تحركها ، فالتحرك الذي يمارسه اعداء الامة ليس بسبب مصالح آنية لاولئك الاعداء تتهدد ، انما بسبب مستقبل يبنى ليس فيه مكان لنظرتهم الى الحياة ولفهمهم للعلاقات الانسانية •

في تقديري انني بهذه المقدمة اوضحت هدفي المركزي من وضع هذا الكتاب فهو ليس محاولة لتقويم قوى تعيش خارج دائرة الامة العربية فهذا ليس من حقي ولست ادعيه انما هو محاولة لتقويم موقفها من الامة العربية فقط • كما ان الدوافع وراء هذا الهدف ليس محاولة لتعبئة ضد عنصرية مقيتة الا بقدر الحيلولة دون انزلاق عربي عنصري ودون ابتعاد عربي عن فهم اسس المجابهة وفلسفتها والابتعاد عن العمل المطلوب ، فالخطر حضاري اولا وأخيرا مهما عبر عن نفسه بتفاصيل تبعد الانظار عن توجهه الجوهري وهذا ليس وعظا للوعي انما دعوة للعمل ••• ومجابهة الخطر الحضاري تتم عندما تفهم الامة العربية ان مشكلتها في جوهرها مشكلة حضارية ولايمكن لامة ان تفهم مشكلتها او تحلها مالم ترتفع بفكرتها الى مستوى الاحداث الانسانية وما لم تتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات او تهدمها •



الفصـــل الاول

الامـة العربية ٠٠٠ النشـأة والتحـدي ٠

التكون الحضاري

شهدت الاراضي الممتدة بين المحيط الاطلسي غربا وجبال زاجروس ولورستان شرقا استيطان الانسان الاول منذ ازمنة قديمة ، غير ان مواضع عدة منها مثل حوض دجلة والفرات ووادي النيل وسفوح اليمن ، شهدت تراكم الخبرة اليومية الانسانية بشكل كاف لكي يبزغ فجر الحضارة ولأول مرة في تأريخ الارض في حدود خمسة الآف سنة قبل الميلاد، ففي الآف القرى ومئات المدن المنتشرة على ضفاف الانهار وحافات الوديان استطاع الانسان ان يبتكر الكثير من المبتكرات الحضارية التي شكلت مفاصل مهمة في التقدم البشري بدءا بالمحراث وما اعقبه من (نشاط الزراعة) الى الزورق واثره في (اتساع الانتقال) وصولا الى بناء السدود واقامة نظام الري الدقيق الذي عبّر عن نجاح الانسان في السيطرة على محيطه الطبيعي ، كل ذلك في اطار من الافكار والمعتقدات ذات الطابع الروحي والعاطفي والمنحى الانساني • ثم جاء ابتكار الكتابة ليتحول هذا المنجز الى ثقافة عامة مصاغة بأسلوب ادبي رفيع ، وتدريجيا ادى تنوع الانتاج والتخصص الاجتماعي الى ظهور دويلات المدن، ومن خلال شعور بالمسؤولية الادبية والاجتماعية تجاه الانسان وعلاقته بالحركة الكونية استطاعت تلك المدن ان تجتاز بوعيها حدود اسوارها وان تدرك قيمة القلق الذي يعيش في داخل الانسان ويدفعه الى المزيد من معرفة الكثير مما حوله ، فتنتقل بأدراكها الى ابعد من الارض التي تعيش فوقها فتكتشف ان العالم اوسع مما تحت اقدامها وانه يمتد بعيدا خلف اسوار المدن ومن ثم تدرك ان عالمها هذا على كبره ليس الا شيئا نسبيا في الكون •

ادى توافر الادراك عند السكان القدماء الى سرعة التطور الحضاري، فاولئك الذين ادركوا سر الاشياء المحيطة بهم ونجحوا بأنتزاع القوة لأنفسهم افقدوا الطبيعة التي يعيشون فيها الكثير من قواها التي كانت تتحكم بهم وتحدد نشاطهم اليومي ، ثم استطاعوا ان يوظفوا نجاحاتهم في سيطرة ارقى على الطبيعة وسعّت ظرتهم الى الحياة والكون واعطتها شمولية فريدة من نوعها لا من حيث حصر الاشياء ، ولكن ــ وهو الاهم ــ ادراك معنى الزمن وكيفية صنع التقدم وهنا توصلوا الى ابتكار اكثر تقدماً هو « الدولة »[1] التي كان ظهورها مع تكامل الحضارة في الوطن العربي تعبيرا عن حوار بين ثنائية بديعة تلك هي « خلق الشيء للشيء » فأصبح ظهورها فرصة للابداع في مجالات شتى :

- فهو من ناحية كان ارتقاءً بالافكار والمعتقدات وتهذيبا رائعا لها وتوجيهها نحو الوحدة ، اذ ان دولة كبيرة تضم مدنا وقرى تتناثر فيما بين جبال طوروس شمالا والبحر العربي جنوبا وجبال لورستان شرقا والبحر المتوسط غربا تعني ان اله (اكد) اصبح الها اكبر لسكان دولة الوحدة كلهم .

- ومن هذه الناحية اشتقت اهمية اخرى لظهور الدولة ربما هي الاهم تلك هي تمازج الفكر الديني بالعملية الاجتماعية للانسان وبالتالي تحول التوحيد الديني الى هدف مرافق للتوحيد الاجتماعي (اقتصاديا وسياسيا وثقافياً) ، واستقراره سمة من سمات التميز القومي .

- وكان ظهور الدولة يعني مزيدا من تنظيم وتوجيه عوامل وشروط النشاط الحضاري لسكان الدولة نحو هدف عام شامل تنتظم فيه كل الاهداف التفصيلية لسكان المدن التي كانت بنظرهم هي كل اهدافهم في الحياة .

---

١ ــ المقصود الدولة المركزية التي اقامها البطل القومي العظيم سرجون الاكدي ٢٢٧٥ ق . م بعد توحيده دويلات المدن .

— وثمة اهمية اخرى ترتبت على ظهور الدولة وان لم تكن اخذت شكلا كاملا وعميقا من النضج والوضوح ، وهي التماسك النفسي للسكان الذي شكل قاعدة لارادة الانتماء الى الكل الاكبر الذي سيكون له شأن كبير في حركة التأريخ في الوطن العربي مستقبلا •

ومع اننا لا نمتلك كثيرا من التفاصيل عن الحركة اليومية للعملية الاجتماعية للمجتمع آنذاك ، نفيد منها في تحديد منهجية تطوره، غير اننا نستطيع ان نسجل بعض الملاحظات الجوهرية : —

اولا : ان سمات « الادراك » و « السيطرة » و « التقدم » استقرت عبر المسيرة التأريخية لسكان الوطن العربي سمات اساسية تسمهم، وانها كانت تشكل عناصر رئيسة في حضورهم الذهني وتحركهم اليومي •

ثانيا : تعززت هذه السمات من خلال تفاعلهم مع البيئة التي كانوا يعيشون فيها بما تتسم من خصائص الصحو واتاحة اتصال الانسان بالكون ، والموقع المتوسط للوطن العربي في العالم وسهولة الاتصال بالآخرين ، والمساحات المائية الواسعة ودورها في تسهيل الاتصال •

ثالثا : ان فلسفة استخدام الانسان للبيئة مع ما فيها من تعقيد زادت من فرص خلق امكانات الحياة مما اتاح للانسان ان يكشف عظمة وقيمة الجهد الانساني كقوة في خلق الحضارة •

رابعا : بغض النظر عن موضوع العرق او العنصر او وحدة النسب لسكان الوطن العربي فأن هذه السمات والارض واشتراط توافر الجهد الانساني لصنع التقدم الحضاري ، جعل الاجيال التي تعاقبت على سكنى الوطن العربي اسيرة السمات والخصائص نفسها وازاء مسؤولية تقديم الجهد الانساني نفسه لصنع الحضارة ، وانها عملا بهذه المحكمات ادت دورا واحدا من حيث حركته التأريخية (التسلم والتمثل والابداع) فالجيل منها يعايش الاجيال السابقة له ويتمثل انجازها الحضاري ،

ويستوعبه ، ويبدع وليدا ينتسب للمراحل السابقة له في الاسس ويحاكي العصر الذي يتجدد فيه ، ومن هنا اخذ التغيير في الاوضاع الاجتماعية داخل الوطن العربي شكل تغييرانتقالي داخلي تواصلي على عكس مجتمعات كثيرة حول الوطن العربي •

ومثل هذه السمة في الحركة التأريخية توحي بأكثر من معنى ، وتوكد اكثر من حقيقة ، لعل في مقدمتها واهمها اطلاقاً وحدة الاصول الاجتماعية ووحدة وحضارية الحركة التأريخية التي بلورت شخصية الامة واكسبتها خصوصية قومية وحددت وضع هذه الاجيال تأريخيا بأنها اجيال امة اكتمل تكونها لااقوام غريبه بعضها عن بعض ، دونما حاجة لسوق العوامل التقليدية عن وحدة العنصر ونسب الاقوام التي تعاقبت على الفعل الحضاري في وطننا •

خامسا : ولعل واحدة من ابرز دلائل هذا التغيير الانتقالي التواصلي انه اصبح قاعدة لحالة وعي اساسي ترى ان المسألة ليست مسألة تغلب بالمعنى التقليدي للصراع وانما المسألة توارث « رسالة » من هنا كان الحرص لدى الاجيال المتعاقبة على ابقاء هذه الرسالة في حالة حيوية دائمة ومستمرة وارتقاءمتواصل من اجل ان تضمن صمودها ازاء المستجدات في الزمن المقبل ، ومع ان الكثير من المفكرين يعتقدون او قديتبادر الى ذهنهم ان تواصل الرسالة عند العرب اقتصر على عنايتهم بتطوير المعتقدات الدينية والدفاع عن جوهرها « التوحيد » الا ان الواقع التأريخي غير ذلك ، فما نصطلح على تسميته بتكامل الحضارة هو صورة لتواصل الرسالة ، اذ لم يعرف عن السومريين انهم قدموا كل المبتكرات الحضارية بل لايستطيع مؤرخ علمي ان يرجع المبتكرات الحضارية لجيل بعينه انما هي اضافات كل الاجيال حتى تكاملت وماشتهار البعد الديني في الرسالة الا لأن العرب حرصوا على ان يبقوا نشاطهم المادي على الارض مؤطرا بقيمهم الروحية فعندهم الفعل على الارض هو تعبير عن الالتزام بتلك القيم الروحية •

سادسا : ان خاصيات العملية الاجتماعية للامة مع سمات البيئة وما تتيحه من احتكاك بالشعوب المحيطة بها ، وسهولة الاتصال بها ، والانتقال فيها بين شعوب متعددة ، والارتكاز الى تلك النظرة الكونية الشاملة جعلت ، الامة في موضع الاخذ والعطاء الدائم ، فحينما تكون مهمة امة بناء انسان اياكان، وصولا الى بناء انسانية ذات سمات خاصة،فأنها تمارس الاخذ والعطاء دون شعور بالنقص ازاء عظمة وجلال المهمة ، لذلك لم تمارس الامة العربية احتكار المبتكرات الحضارية على العكس كانت تجهد نفسها في كيفية توظيفها في خدمة الشعوب فعن السومريين تفرعت الكتابة في العالم القديم ووضعت مراكز الحضارة معابدها في خدمة طلاب العلم دائما ففي مدن الساحل الشرقي للبحر المتوسط مثل انطاكية ، وفي الاسكندرية علىالساحل الجنوبي منهوجد اليونانيون حريةالتعلم ونقلوا العلم الى بلادهم بالشكل الذي فهموه وارادوا ان يعتمدوا عليه اساسا فيتقدمهم، كذلك لم تمارس الامة العربية اثناء انسياحها الحضاري اية عملية تدميرية ، على العكس فالعرب هم الذين حفظوا للفرس تلكالكتيبات التي توارثوها عن الهنود واجدادهم ، وهم الذين قدموا علوم الرومان واليونان الى العالم ، بل ان اولئك الفرسان الذين عبروا الى اسبانيا بقيادة طارق بن زياد لم ينتصروا على ملايينها العشرة عسكريا فقط ، وانما انتصروا بتفوقهم الحضاري وبأنهم يحملون نظاما اجتماعيا اعلى فظهروا بمظهر المحررين للاقنان من ملوكهم فأصبح السكان اصدقاء لمحرريهم وليسوا مقاتلين ضدهم[2] فعلى عكس مافعله الاسكندر فيفتوحه الجامحة العنيفة التي غيرت وجه الارض بحيث ينتفي معه التمييز فأن حروب العرب المسلمين الاول غيرت وجه الارض بأن ارجعته الى وضع يشبه فيه ما كان عليه في زمن ساحق[3] ، انها اعادت تصحيح

---

٢ ـ روجيه غارودي : حوار الحضارات ، ترجمة د . عادل العوا (بيروت ، دار عويدات ١٩٧٨ م) ص٩٧ .

٣ ـ ارنولد . ج توينبي : بحث في التأريخ ، ترجمة طه باقر (وزارة المعارف العراقية ١٩٥٥) جـ١ ، ص٥٢ .

الانحراف في تأريخ التطور الحضاري وارجعت ذلك التطور الى اصوله الاولى ، فأعطته تواصلا صحيحا هو سبب ابداعه المبكر الذي لم يجعل تلك الحروب مجرد حروب انما جعلها وسائل تحرير انساني وازالة لكل الرواسب الخرافية والاسطورية التي تعرقل الانسان علميا وثقافيا ، وتفجير لقدرات الشعوب بأتجاه الابداع والفعل الحضاري . وانتجت هذه المسيرة الطويلة نمطا حضاريا عربيا خاصا يرتكز الى امور جوهرية تحددت في التوحيد والتأكيد على الجوهر الروحي والانساني للعلاقات البشرية ادى دوره المؤثر في الحياة البشرية .

وانتقلت مبتكرات الحضارة العربية وفنونها واساليبها وطرائق الحكم الى الشعوب المحيطة بها لتطور حياتها وتبدأ مسيرة التقدم ، في الوقت الذي نمت فيه حضارات اخرى في مواطن اخرى لم يقدر لها اكتساب ذات الخصائص، وبمقدار ماعبّر العرب في نشاطهم عن رغبة في تفاهم حضاري عالمي وفي تظافر ثقافي ، كان موقف الاخرين عدائيا ، ومن هنا نشأ احتمال التصادم ، ومع اننا لاناقش قضية جوهرية هي مسألة سقوط الدول الا اننا لانرى بدا من الاشارة الى ان هذا التصادم ادى دورا في سقوط الدول القديمة في الوطن العربي ليس من خلال هجومه المفاجىء وانما من خلال بؤر التخريب التي زرعها والتي مهدت لتقدمه . وهكذا بين سقوط بابل وقيام الدولة العربية الاسلامية ، شهدت الامة العربية مظاهر متعددة لاستمرار نزعة العداء لها ، وكانت لها مواقف صمود متعددة ، وبالتاكيد كان نجاح خصومها في تفاصيل الصراع نجاحا كبيراً تمثل في اقصاء العرب عن مسرح النشاط العالمي لكن انتصار العرب كان اكبر من نجاح خصوصهم ، ذلك انهم حضروا اولئك الخصوم .

فالاخمينيون اقوام جاءت من مناطق غير حضارية لم تشهد نمو ونضج نظم حضارية ولا مستحدثات اجتماعية في الاستخدام اليومي ، ومن ارض تختلف طبيعتها عن طبيعة الاراضي العربية فهم اذا كانوا يمتلكون

كل مظاهر القوة التدميرية فأنهم لم يكونوا يمتلكون فكرة عن كيفية ادارة المرافق الحضارية التي وجدوها ، ومع شعورهم بالحاجة الى استخدامها، كان لابد ان يحملوا بعض اثارها ، ويقال الشيء نفسه عن اليونان فالاسكندر الذي اكتسح الشرق بمايملك من وسائل القوة وجد نفسه أيضا ازاء نظم حضارية وتقاليد ومبتكرات ما اعتاد عليها في بلاده ولم يجد نفسه ولااتباعه قادرين على تجنب مؤثراتها ، فتنظيم الدولة وانظمة الري ومحاصيل المنطقة المناخية التي لم يألفوها كلها امور فرضت نفسها عليهم • ثم جاء الرومان والساسانيون ولم يكونوا اكثر فرقا من حيث الجوهر بالسياق العام عن اسلافهم الاخمينيين واليونان الا ان التقدم اعطى اوضاعهم شكلا اخر ربما اكثر تمتعافي قوة التحدي، فهم على خلاف اسلافهم لم يأتوا للتمتع بمنافع الحضارة او امكانات البلاد ولا بالضرورات الستراتيجية حسب وانما جاءوا بفعل الشعور بذلك التناقض والعجز عن التوصل الى تفاهم حضاري عالمي ينظم العلاقات البشرية ، لذلك اتجهوا الى جوهر التناقض دون ان يهملوا الانتفاع مما تحويه الارض العربية • ومن هنا احتضن الساسانيون اليهود المحرفين للتوحيد ،وكان الاحتضان هذا بداية نشأة العلاقة بين المجوسية واليهود في التاريخ التي استمرت الى الان وعبرت عن نفسها بأشكال متعددة ، واعتنق الرومان النصرانية بعدما كيفها لهم بولص وبطرس في اثينا وروما، وقد رافق عملية الاستلاب التي مارسها المحتلون جهودا مضنية لاجتثاث جوهر التناقض بينهم وبين العرب (التوحيد والرؤية المتوازنة للعلاقات الانسانية) ، ازاء هذا الخطر تخلت حركة المقاومة العربية عن اشكالها التقليدية وممارساتها الهامشية بأظهار تحديها السياسي لقوى الاحتلال ، فتوازن القوى والامكانات المتاحة لم تكن في صالحها كما يظهر لنا مصير التحديات السياسية لامارات العرب التجارية في الشمال لذلك اتجهت حركة المقاومة الى تعزيز جوهرها الحضاري بالتمسك بالتوحيد ورفض الثقافتين

الساسانية والرومانية ، والانتقال الى الصدام الثقافي معهما ، فموقف الكنيسة المصرية بقيادة اريوس كان يمثل قمة النضج في موقف القائلين بالطبيعة البشرية (الطبيعة الواحدة) للمسيح وكان هذا التصادم الثقافي لابد ان يقود ويوجه اشكالا اخرى من الصدام ويؤجج مستوي جديدا من الروح العربية ، وظهور كندة في الوسط الشمالي للجزيرة العربية واضطراب العلاقة بين الرومان والغساسنة وبين الساسانيين والمناذرة ، وقيام الثورة في اليمن ضد الوجود الفارسي توافقت في حدوثها وتراكمها هي ومظاهر الوعي الاخرى مع تلك الوثبة الخالدة في الروح العربية (الاسلام) ، فمرحلة ما قبل الاسلام التي شهدت التبشير بالنصرانية على المذهب الملكاني وقبلها المجوسية عرفت اصطلاحا «بالجاهلية» ، غير انها لم تكن كذلك ، على العكس كانت حيوية وذات خبرات لم يتح الكشف عنها لحد الآن والا اليس شئيا ملفتا للنظر ان نرى الامبراطورية الرومانية تمتد بنفوذها السياسي لتحتوى معظم اوربا وسواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية وتنجح في ان تحتوي كل الامبراطورية وقبائلها وشعوبها تحت لواء مذهبها الديني الا العرب فأنهم سلكوا اتجاها آخر واعتنقوا النصرانية اما على التوحيد الاول الذي اخذ ابعاده كاملة في الاريوسية او على مذاهب اخرى اقل توحيدا غير انها تختلف عن المذهب الرسمي للدولة ؟ لقد كان المهم لدى العرب الا يعتنقوا المذهب الملكي وان يتميزوا منه ومن باقي شعوب الامبرطورية خارج الوطن العربي طالما ان لكل من الاثنين نمطه الحضاري في فهم الاشياء .

ادى هذا التطور التأريخي الى ان تستقر سمة الفعل الحضاري عند العرب بعد ان استقرت سماتها الاساسية عند الانسان العربي (الادراك ، السيطرة ، والتقدم) ، وجاء هذا الاستقرار في حالة من الوعي لاننكر انها ليست واحدة لا بالمعنى الاجتماعي ولا بمعنى الزمن غير انها بدأت وعيا للمدركات نفسها وحملت الخصائص ذاتها وكان استمرار الحركة

التاريخية للامة كفيلا بجعلها واحدة،فمراكز الفعل الحضاري التي اصبحت تعيش حالة الوعي بوحدة الخصائص فوجئت بتناقض داخلي هو تناقض التجديد في الوعي مع القديم المستمر الراسخ وتعكس حركـة اخناتون التوحيدية وموقف الكهنة منها فيما بعد حالة التناقض هذه ، وانصبت الجهود على الخروج بنتائج ايجابية من هذا التناقض غير ان بروز قوى عالمية جديدة اضاف ضغطا بأتجاة سلبي اجهض تلك المحاولات واسقط مراكزها واذا كان هذا بحد ذاته تنيجة سلبية في حدود زمنها فأنه وبحدود المستقبل كان ايجابيا فقد دفع ضغط القوى العالمية الجديدة بالعرب الى حالة من وحدة الوعي تمثلت بتمسكهم بالتوحيد وعدم الاقتصار على مراحله المتقدمة المتزامنة (اليهودية والنصرانيـة) انما بربطها بالجوهر (الحنيفية) فأصبح هذا التمسك اول مرة شاملا اجتماعيا ومرتبطا للمرة الاولى بنواة جغرافية هي جزيرة العرب تقديرا من الموحدين بقيمة النقاء القومي والبقاء خارج دائرة التأثير الاجنبي ، فهذه المرحلة كانت مرحلة وحـدة حالات الوعي العـربي وبدء مخاض قومي عريض شكل بداية لتوحيد جهود الامة ودفعها نحو هدفها بشكل واضح ، انهـا ايجابية لانها كرست اتجاهات الحركة التأريخية وسمات نشاطها الحضاري بكونها مظاهر لخصوصية قومية ، لذلك نشط الرواة لجمع اخبار العرب واخبار حياتهم،كمااتجه النسابة لتسجيل انساب القبائل وتنظيم هيكل قومي مشترك لتلك القبائل تغليبا لشعور الوحدة العامة والانتماء الى الامة بدل الاكتفاء بالقبيلة ، كما اتجهوا في معتقداتهم الدينية الى جمع الهتهـم في مكان عبادة واحدة هو مكة بدل التشتت ، ومما لاشك فيه ان التمسك بمكان واحد لعبادة الآلهة المتعددة قاد الى النضج في المعتقدات الدينية نفسها . فالتكامل الحضاري اصبح مردفا بالتكامل القومي ، وبهذا اضاف الى تناقض الامة الحضاري مـع اعدائها تناقضا قوميـا .

التكون القومي (الاسلام)

ظهر الاسلام وابتدأ التجدد الحضاري للامة العربية غير انه في هذه المرة اخذ ابعادا اعمق واشمل مبتدئا ببناء الامة العربية وتجديد الرسالة الانسانية لها مؤسسا شكل الحركة الثقافية الجديدة • لقد انجز الرسول القائد (ص) بناء الامة وحدد ملامح تكاملها القومي فأشر لخلفائه الشكل الواقعي الذي ستعبر الامة به عن حركتها اليومية (الدولة) • لقد اتسمت حركة التجدد الجديد بسمات جوهرية منها :

- انها اول مرة تشمل كل الوطن العربي وكل الامة فبين بدء الهجرة الى يثرب حتى سنة ٧٩هـ انجز العرب وحدتهم الجغرافية والبشرية •
- انها اقترنت بمرحلة عدت لقوتها خاتمة المطاف في جهود الانبياء والمصلحين قبل الرسول القائد محمد بن عبدالله (ص) ، تلك هي حسم الموقف لصالح التوحيد ففي القرآن فقط تم حسم هذه المسألة بالشهادة (لااله الا الله) ، وقد انسحب هذا الحسم على الامة في شكل وحدة فكرية ووحدة بناء نفسي كرست الوحدة الاجتماعية •
- انها عرفت اروع صور التزاوج بين التوحيد والوحدة بين (الدين والعملية الاجتماعية للامة) وانها لذلك اخذت ابعادها الاجتماعية كاملة سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، وعندما اضطر الرسول (ص) الى حمل السيف لتحقيق سياق من الانتصار للحركة الجديدة بين العرب وضد

القوى التي تحتل ارضهم اقترنت حركة التجدد القومي بمسؤولية انسانية لتغيير العلاقات اللا انسانية السائدة القائمة على الاحتلال والاستعباد والظلم .

- انها حركة تجدد حضاري تكرس التمدن وتنطلق من حقيقتين اساسيتين (روح العصر) و(الخلفية التاريخية) .

اخذت المدينة المنورة على عاتقها مسؤولية الحركة الثقافية التي كان منطقيا ان تبدأ من عقيدة العصر (الاسلام) ، وبتأثيرها ظهرت مراكز جديدة للحركة الفكرية في دمشق والفسطاط والكوفة والبصرة والقيروان ، وبفعل عوامل التكون على الاسس الاولى والمكانة المتميزة للمدينة لكونها مدينة الرسول القائد ولأن العلماء والمفكرين الاول اخذوا العلم فيها ، وبسبب ارتباط العلم بحياة الرسول القائد وعقيدته ، فقد كانت هذه المراكز رغم تعددها تحمل في الواقع سمات مدرسة المدينة وتقوم بوظيفتها ولكن على نطاق اوسع واكثر انفتاحا للتطور (تفرع العلوم وتنوعها) ، فأنجزت دمشق بحكم كونها مركز الدولة السياسي اللاحق اروع خطوة في مجال الثقافة القومية اطلاقا عندما امر الخليفة عبدالملك بن مروان بالتعريب ، فهذه الخطوة اضفت سمت العروبة على مسار الدولة وعلاقات مجتمعها وهيأت للاجيال المقبلة ارضية للوحدة الفكرية ، كما انها عززت البناء النفسي الواحد وارادة الانتماء الى حركة التغيير والانطلاق بحركة الثقافة الى مديات اوسع من مجرد التنظير في حدود العلوم الاساسية للعقيدة ، الى الواقع التطبيقي لتلك العقيدة في الحياة الاجتماعية والمادية .

وفي قرن لاحق ظهرت بغداد ، وقد رافق ظهورها تحول مهم تمثل في استمرار التوجه شرقا بينما استقل المغرب والاندلس وتوقف الاسلام عن التقدم الجغرافي ، لقد ادى استمرار التقدم شرقا الى سيادة ماهو اسلامي بينما ادى توقف التقدم غربا الى تأصل ما هو عربي اسلامي وسرعان ماصبحت

بغداد قائدة للحركة الثقافية بفعل مركزها السياسي عاصمة للدولة وسلمت تلك المراكز الاولى امور القيادة وارتحل مفكروها الى بغداد ، وجاء ازدهار بغداد الثقافي مرافقا لازدهار اجتماعي واسع ، وازدهار في المجالات الاجتماعية الاخرى السياسية والاقتصادية والثقافية ، وانتشرت فيها المدارس ودور العلم والمكتبات وتقاطر طلبة العلم عليها من مختلف انحاء الدولة الاسلامية ، وقد اتاح هذا الدور الجديد نشوء مراكز جديدة للحركة الفكرية في مرو وهراة وسمرقند وغزنه وبخارى •

اما في المغرب فقد نجح العرب بأقامة اروع حضارة في اسبانيا امتازت بتنوع مجالاتها وتفرع علومها وبقدرتها على التنظير والتطبيق لانها امور ضرورية للصمود بعد حالة الصد التي جابهوها والتوقف الذي ظهر ولكي لايصبح التوقف بداية للتراجع ، والاهم في عناصر روعة الحضارة انسانيتها التي عكست بها انسانية التحرك القومي للأمة العربية وتسامحها الديني واهتمامها بالانسان وتنمية حسه وذوقه وعقله وبنائه الاخلاقي فأصبحت قبلة لطلاب العلم الاوربيين حتى ان المفكر الفرنسي (اناتول فرانس) يعد اشأم يوم في تاريخ فرنسه هو يوم معركة (بلاط الشهداء) عندما تراجع العلم العربي والفن العربي والحضارة العربية سنة ٧٣٢م امام همجية الفرنجة[٤] •

ولابد لنا بعد ماعرضناه من وقفة تكثيف وتقويم :

اولا : ان الاسلام جدد نشاط الامة العربية الانساني في رسالة قومية وعالمية، وابرز ما في هذا التجدد ان قاعدته المادية والاجتماعية واحدة هي الوطن العربي والامة العربية وحركتها المادية اليومية هي الدولة الواحدة وهو مالم يتوافر لهما في حقب التأريخ السابق بهذا المستوى المتكامل •

---

٤ ـ روجيه غارودي : ص٩٨ ، عن اناتول فرانس في كتابه الحياة الجميلة

ثانيا : ان استلهام الامة العربية لمبادىء الاسلام والتجدد الحضاري في ضوئه اديا الى تجسد انسانية الامة ونظرتها الشمولية في شكل نظام اجتماعي يقوم على التعاضد والتحرر والتمدن وتحويل الحياة اليومية الى فرص مستمرة للابداع الانساني غير المحدود بعامل الزمن او البيئة او العنصر .

ثالثا : ان الامة العربية تعطي الحضارة مفهوما خاصا فهي لاتعني سيادة والتسلط وانما رؤية معينة للحياة وصيغة في ممارستها وهي متاحة للجميع .

رابعا : إن لهذه الحضارة نواة فهي حركة تكون ثقافي قومي تجسد مظاهر الخصوصية القومية للامة ، والحصانة الحضارية لها بحيث لاتخشى ان تنقل للعالم تراث مرحلة انسانية كاملة من الابداع وهو مالم يفعله اي من شعوب العالم الى الآن .

خامسا : ان هذه المسيرة التأريخية الحضارية اكدت مرة اخرى جوهر الحركة التأريخية للامة (التوحيد) والجوهر الروحي الانساني للعلاقات البشرية في عصر جديد له مستواه الذهني والاخلاقي والنفسي وله ظروفه التي تجعل شروط النشاط الحضاري اكثر حركية واوضح تعبيرا .

سادسا : ان هذا المناخ الثقافي العام غطى اجتماعيا وجغرافيا الاراضي الممتدة بين الصين شرقا والمحيط الاطلسي غربا وبين القفقاس وطوروس واسبانيا شمالا والمحيط الهندي وافريقيا الوسطى جنوبا ، ولم يكن هذا كل العالم ففي الاقل بقي خارج هذا النطاق شمال اوربا وشمال آسيا وجنوب افريقيا ويهمنا شمال اوربا الذي كان حتى هذا الوقت مسيحيا .

وقد تعامل العرب مع الشعوب التي احتضنوها في مناخهم الحضاري منطلقين من انسانيتهم بصيغ الادارة المباشرة (تحرير العبيد وتشجيع التمدن واتاحة التعليم والعمل) اما مع المجتمع المسيحي خارج حدود مناخهم الحضاري فقد تعاملوا انطلاقا من الخاصية الانسانية نفسها بصيغ اتاحة العلم ومبتكرات الحضارة دونما احتكار او تسلط .

معاودة التحدي

توخى الاسلام في البداية تأصيل مرحلة من النضج القومي والتجدد الحضاري شاملة وجذرية بلغت ذروتها في خلقها شخصية قومية لها مؤسسة فكرية تستوعب تأريخيتها وطموحاتها لبناء نهضة حضارية تحمل سماتها الاساسية وكان من قيمة دوره في تصحيح العلاقات البشرية واعادة الامور الى طبيعتها بعدما لحق بها من تخريب ناجم عن تحريف المفاهيم العامة والانسانية لتلك العلاقات الذي تسبب به تحالف القوى المادية من رومان وساسانيين ويهود ، ان احتوى الكثير من شعوب آسيا وافريقيا واوربا في الحياة الجديدة فأعطى النهضة الحضارية قوة في التأثير والابداع ، فكان طبيعيا ان تشعر القوى المنهزمة بتناقضها مع الاوضاع الجديدة وان تبحث عن صيغ جديدة في المجابهة والتحدي ، وقد واجهت الامة العربية في هذا الوقت تحديين هما :

١ ــ التحدي الشرقي .

٢ ــ التحدي الغربي .

ومع اننا لانقصد تحديدا حضاريا او جغرافيا دقيقا بأستخدامنا مصطلحي «شرقي» و«غربي» الا انه لابأس من استخدامهما ولو مجازيا ، فهذان التحديان يختلفان مكانيا ولانقصد بالاختلاف المكاني جغرافيا فقط انما نعطيه

بعدا آخر ، فالشرقي يعني عمليا (داخلي) من داخل المناخ الحضاري العربي الاسلامي ، اما الغربي فأنه من خارج هذا المناخ ، بالاضافة الى المدلول الجغرافي •

ويختلفان ايضا في طبيعتهما فالتحدي الغربي كان حضاريا يعني انه يمثل عقيدة وبناء اجتماعيا معينا ، اما الشرقي فلا تتوفر له كل هذه المزايا فهما اذا بالضرورة يختلفان ايضا بالوسائل التي استخدماها في المجابهة •

اولا : التحدي الشرقي

١ ــ الفرس[٥] :

احتك العرب في الاسلام اول مرة بالفرس عندما اسقطوا الدولة الساسانية سنة ١٦هـ التي كانت تتخذ لها عاصمة في ارض عربية هي العراق، وتتبعوا لأسباب ستراتيجية وانسانية فلول هذه الدولة واحتضنوا املاكها والشعوب التي كانت خاضعة لها ، ومع اسقاطهم الدولة اسقطوا الفلسفة العامة لها المتمثلة في الديانة المجوسية الثنوية وظام العبودية والطبيعة الارستقراطية والاقطاعية وسيطرة الخرافات الاسطورية ،وانهوا الحروب التي كانت تطحن تلك الشعوب ، واتاحوا لأبنائها الاستقرار في قراهم يمتلكون اراضيهم امتلاكا انتفاعيا ، وتركوا لهم حرية اعتناق الاسلام او عدم اعتناقه غير ان هذه الحرية مشروطة بتحمل تبعة الاسهام المالي في حالة عدم الاسلام ، مقابل الدفاع عن امنهم •

وكانت هذه الاعمال تعني عمليا تحرير الانسان من عوامل السحق والاضطهاد النفسي والاقتصادي والاجتماعي ، وتتيح له مجالا اوسع لأكتشاف انسانيته ، غير ان المجتمع سرعان ماشهد مواقف عدائية مصدرها الفرس يتحدث عنها الطبري فيقول : « فدعا سياه (القائد الفارسي) الرؤساء الذين

---

٥ ــ لمزيد من المعلومات انظر كتابنا ، العلاقات العربية الفارسية ، دراسة تأريخية (دار واسط للنشر ، بغداد ، ١٩٨٢) •

خرجوا معه من اصبهان فقال . قد علمتم انا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم ... سيغلبون على هذه المملكة .. وقد غلبوا على ما رأيتم وليس يلقون جندا الا فلوه ، ولا ينزلون بحصن الا فتحوه فأنظروا لأنفسكم ، قالوا :رأينا رأيك، قال : فليكفني كل رجل منكم حشمه والمنقطعين اليه فأني ارى ان ندخل في دينهم . ووجهوا شيرويه في عشرة من الأساورة الى ابي موسى يأخذ شروطا على ان يدخلوا في الاسلام » وفي نص آخر يورد لنا الطبري مارافق معركة نهاوند سنة ٢١هـ فيقول : « نظروا لكتاب يزدجرد الملك ، فتوافوا الى نهاوند ... ثم انهمقالوا : ان محمدا الذي جاء العرب بالدين لم يغرض غرضنا، ثم ملكهمابو بكر من بعده فلم يغرض غرض فارس ، ثم عمر من بعده فطال ملكه وعرض ، حتى تناولكم وانتصفكم السواد . . ثم لم يرضى حتى أتى اهل فارس والمملكة في عقر دارهم .. وليس بمنته حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين ، ثم تشغلوه في بلاده وقراره ، وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبوا بينهم على ذلك كتابا وتمالئوا عليه »[٦] .

ومنذ ذلك الوقت اصبح الفرس طرفا في كل فتنة او انقسام فمنهم قاتل الخليفة عمر بن الخطاب ومنهم زادويه الذي تحالف مع الخوارج على قتل الامام على بن ابي طالب[٧] ، وهم قادة الحركة الشعوبية التي توجهت الى الطعن بالعرب وصولا الى هدم الاسلام ومنهم الزنادقة والفرق التي ادخلت على الاسلام ما ليس فيه .

كان جوهر الموقف الفارسي يقوم على نظرة استعلائية مستمدة من تراث الارستقراطية المجوسية لذلك لم تخرج ممارساتهم عن هذا النطاق ولم تكتسب طابع التحدي الحضاري ،فهم بدءاً من الاخمينيين كانت نظمهم وتقاليدهم تفريس للنظم الآشورية والبابلية وحتى اساليبهم السياسية هي اساليب الملوك

---

٦ ـ الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك (دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠) جـ٤/ ٩٠ ، ١٢٢ .

٧ ـ المبرد : الكامل في الادب (القاهرة ١٣٥٥ هـ) ج٣ ص٩٢٦ .

البابليين والميديين مع ما ادخل عليها من تكييف[8]،كما ان لغتهم كانت خليطا من المفردات العائــدة للغــات متعددة وخطهــم الكتــابي عراقــي سومــري وعندما خلف الساسانيون الفرثيين في الحكم وانتقلوا الى العراق لم يأتوا من اقليم مزدهر حضاريا فأقليم فارس صحراوي صخري ودخولهم العراق يعني انهم اصبحوا في حضن الحضارة العريقة ، ورغم ما يشار الى دياناتهم وادابهم فلم يخلفوا كتبا تكشف لنا آدابهم تلك بينما المفروض لو انهم يملكون مثــل هذه الكتب لظهرت ، فقد احتوتهم الدولة العربية وبقوا يعيشون في كنفهــا واتيح لهم في العصر العباسي ان يبرزوا قوة سياسية وحاولوا ان يظهروا كمثقفين لكنهم لم يكشفوا عن تراث ادبي يذكر على العكس يعود الفضل للعرب في حفظ اخبارهم واخبار ملوكهم ودولهم ، لهذا سلك الفرس اسلوب الاغتيال السياسي والاعتقاد الباطني اي ان يضمروا عكس مايظهــروا ، واستخدمــوا اسلوب الدس والتحريف على الطريقة اليهودية ولجأوا الى الشتم والتشهير، لقد كشفت المحــاولات في مرحلــة الصــراع بــين الفرس وبــين المثقفــين العرب القوميين عن اصالة وعمق الثقافة العربية واخلاقيتها وانسانيتها وكشفت عن عنصرية الاساليب الفارسية ولعل اروع نص يمكن ايراده في هذا المجال ماقاله ابن قتيبة احد ابرز المفكرين القوميين الذين دافعوا عن العروبة ضــد الشعوبية يقول ابن قتيبة ... « ثم تتســاوى العــرب وفارس في ان الفريقين ملكوا وتفضلها العرب بأن قواعد ملكها نبوة وقواعد ملك فارس استــلاب وغلبــة »[9] .

٢ ــ الاتــــــراك :

جاء التحدي الآخر من الاتراك ، وعلى عكس الفرس كان دخولهــم في المجتمع دخولا متأخرا ولأغراض عسكرية لما كانوا يمتازون به من قوة تحمل

---

٨ ــ كريستنسن : ارثر ، ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ، ١٩٥٧) ص٤ .

٩ ــ علي : محمد كرد ، رسائل البلغاء (القاهرة ــ الطبعة ٣ ، ١٩٤٦) وفيه كتاب ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم ، كتاب العرب والرد على الشعوبية ص٢٧٦ وما بعدها .

ومقدرة قتالية وطبيعة بدوية رعوية حتى قبل ان يسلموا ، وكان وراء دخولهم هذا اعتقاد بأن الصراع بين العرب والفرس لايجعل الجيش بعيدا عن الانقسام وبالتالي يهدد امن الدولة وجاء هذا الاستنتاج متوافقا مع المعادلة السياسية التي اقام عليها العباسيون فلسفتهم السياسية في قيادة الامة والدولة ، (الاسلام العالمي) او (الاسلام بدون دور عربي) غير ان الخلفاء العباسيين. ولاسيما المعتصم ومن بعده لم يتبينوا الخطر الذي تحمله قوة عسكرية غير متحضرة لم تستوعب بعد عقيدة الدولة ولاتمتلك القدرة على التعامل مع مؤسسات حضارية كالخلافة واجهزتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية والثقافية، فقد كانت هذه القوة تعيش في مرحلة قبلية لم تتجاوزها الى الانتماء الى المجتمع المتمدن لذلك كان طبيعيا ان تنطلق في تعاملها مع الدولة ومع المجتمع من مستواها هي ومن نظرتها هي ، وقد اسهب المؤرخون في ذكر الكثير من قصص تناقضهم مع المجتمع مما اضطر الخليفة الى ان يبني لهم معسكرا خارج بغداد اصبح فيما بعد مدينة سامراء .

يهمنا من الاتراك موقفهم من نظام الدولة الاجتماعي وفي مجاله الاقتصادي خاصة ، يقول المقريزي : « كانت عادة خلفاء الاسلام من بني امية وبني العباس والفاطميين ، من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) ان تجبى اموال الخراج ثم يفرق الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء ومازال ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هذا الرسم وفرقت الاراضي على الجند»[١٠]، وعند المقريزي يبدأ انقراض الدولة العربية منذ عهد المعتصم عندما صار جنده من العجم والموالي[١١] ، ومنذ ذلك الوقت اصبح الاقطاع في العراق والشام ومصر بديلا للاقتصاد المتكامل[١٢] القائم على نظرية العمل والاجور والانتاج المتنوع ، على ان خطورة هذه الخطوة في الواقع تتضح من نتائجها ، اذ ترتب

١٠- المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (غاستون ويب ، ١٩١١) ٣/ ٤٧ ، ٤٨ .

١١- ن . م : ٣/٤٣ .

١٢- ن . م : ٣/٤٨ ، ٥٤ .

على العمل بنظام الاقطاع الغاء البناء الاقتصادي والاداري وتحويل الدولة الى مراكز قوى وتجمعات متعددة متنافسة ، مما ادى الى التفكك الاجتماعي والسياسي واوجد صيغا من الاستغلال والظلم الاجتماعي ، لما تسبب فيه من الفوضى وخراب المشاريع الاروائية وارتباك التجارة ، ادى هذا الوضع في النهاية الى جعل الخلافة نفسها تحت رحمة القوة العسكرية واستمرت هذه الحالة طوال الحقبة بين خلافة المعتصم ودخول البويهين (٢١٨ ـ ٣٣٤هـ) بل انها قادت الى دخول البويهين وهكذا انتقلت الخلافة من دور اتسم بالفوضى وتغلب العسكر الترك الى عصر التغلب البويهي الاحتلالي ، ومن بعده السلجوقي حيث استمرت عملية استنزاف الدولة العربية اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وكانت خطورتها تمس الثقافة مباشرة ، ومع ان الرأي السائد هو ان البويهين شجعوا التأليف غير ان هذا يجب ان لاينسينا ان تشجيع التأليف جاء على حساب منع المحاضرين من القاء محاضراتهم حتى اننا لم نسمع شيئا عن نشاطهم في بغداد ، وواضح جدا معنى ان يتوجه الانسان الى المسجد او دار العالم يستمع الى العلم مجانا ، وبين ان يتجه الى السوق لشرائه في شكل كتاب وهو في حالة من تدني الاوضاع الاقتصادية وانعدام القدرة على الشراء ناهيك عن التدخل المتوقع للسلطة الاحتلالية ومنعها المؤلفات التي تتناقض وافكارها او تلك التي تهدد مصالحها . وانحصر اهتمام هؤلاء المتغلبين بالنهب الاقتصادي وكثرة القوافل التي تنقل ثروات العراق من بغداد الى عواصم الاقطاعيين المتغلبين في بلاد ايران ، ولم تختلف ممارسات هذه القوى في موقفها من الدولة رغم اختلافاتها المذهبية ، وادت في النهاية الى تضييق فرص التمدن واتساع التخلف الاجتماعي بشكل لم تنفع معه الجهود التي بذلها خلفاء متأخرون من اجل بعث الروح في الدولة وتجديد شبابها .

وعندما ظهر الخطر المغولي لم يكن مقدرا للدولة ان تصمد امامه وقد جاء الاكتساح المغولي يمارس تصفية حاسمة للاوضاع الحضارية وعده المؤرخون اعلانا رسميا عن سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ .

التحدي الغربي الصليبي

شهد الوطن العربي منذ القرن الخامس الهجري وحتى القرن السابع الهجري موجة من الحملات العسكرية التي شنتها اوربا على الامة العربية وساهمت في تجنيدها اطراف اوربية متعددة سياسية ودينية ، اتجهت اولا نحو بلاد الشام ثم امتدت الى الجزيرة ومصر وتونس ، وقد اطلق المؤرخون الاوربيون على هذه الحملات اسم الحروب الصليبية في محاولة لاظهار طابعها الديني ، وعنهم نقل المؤرخون العرب المعاصرون هذه التسمية أما المؤرخون العرب والمسلمون في عصرها وحتى وقت متأخر فقد فهموها حروبا اوربية تمثل حالة تحدي اوربي للوطن العربي وللاسلام مركزين على طابعها السياسي والاقتصادي وسموا الحروب الدفاعية التي خاضوها ضد اوربا بالجهاد .

بدأت الحملة الصليبية الاولى عام ١٠٩٧ سالكة الطريق البري باتجاه انطاكية مستفيدة من دعم الارمن الذين كانوا منتشرين في مدن المنطقة (ليكولونيا ، هيرقلة ، قيسارية ، تيانا ، قوزقون ، مرعش) . فاحتلوا انطاكية واتجهوا الى بيت المقدس وفي ١٥ شعبان ٤٩٢هـ ، ١٥تموز ١٠٩٩ تمكن الاوربيون من احتلال مدينة القدس واستمرت هذه الحروب حتى ٦٦٨هـ ، ١٢٧٠ م عام فشل الحملة الاوربية الثامنة على تونس ، وتمخض عن الحروب الاوربية تشكيل مملكة بيت المقدس وامارات طرابلس وانطاكية والرها .

وقفت وراء الحروب الاوربية نوعين من الاسباب ، اسباب ذاتية توفرت في الوطن العربي واسباب اخرى توفرت في اوربا ٠ أما عن الاسباب الذاتية في الوطن العربي فبالتأكيد يجد المتفحص للاوضاع الاجتماعية والسياسية العوامل الذاتية التي وضعت الوطن العربي في موضع الضعف ٠ فعلى المستوى السياسي كان الوطن العربي يعاني من الانقسام فقد تغلب البويهيون على السلطة في بغداد بعد ان مزقتها فوضى الاتراك واشاعوا الانقسام المذهبي وانهكوا الدولة ، وقد ازداد تأزم الوضع السياسي بالموجة السلجوقية ، اذ على عكس البويهين الذين اقتصرت هيمنتهم على بلاد فارس والعراق فالموجة السلجوقية شملت ايضا بلاد الشام ، واشاعت نوعا بشعا من التمزق السياسي تمثل في تحول المدن العربية الى امارات يقودها قادة سلاجقة متناحرون مستغلون متخلفون ٠

وازاء هذا الوضع في المشرق العربي لم يكن المغرب العربي احسن حظا حيث كانت السلطة الفاطمية في مصر في حالة ترد واضمحلال اضافة الى الفتن بين المماليك والسودانيين والمغاربة ، وهو وضع اتاح للاطراف فرصة الاستقلال فانسلخت تونس وكانت الاوضاع في المغرب انعكاسا لهذا الوضع فيما شهدت من فتن طائفية ونزعات استقلالية في المغرب وطرابلس الغرب اضافة الى المدن الاخرى وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الاحداث خروج العرب من صقلية وظهور النزعات الاستقلالية ذات الطابع العدواني في العلاقات السياسية (عصر ملوك الطوائف) وبدء انتزاع الاوربيين للاندلس ٠

رافق هذه الاوضاع الانتشار الواسع لفرق الاسماعيلية وعمليات الاغتيال الواسعة التي مارسوها غير ان اسوأ انعكاس لهذه الاوضاع تمثل في التوجهات التي ظهرت عند الفاطميين والاسماعيلية وبعض الامراء السلاجقة للتحالف مع الاوربيين ، وتغليب الطموحات السياسية والاختلاف المذهبي على المصلحة القومية العليا ٠

اما على المستوى الاجتماعي فمما لاشك فيه ان تنوع الاقوام التي شملتها الدولة العربية الاسلامية وما اتاحه الاسلام وبالذات (الحج) من حراك اجتماعي ادى الى تنوع التركيب الاجتماعي وتنوع في القيم والعادات والتقاليد مضافا لذلك استمرار عملية دخول اقوام من خارج الدولة الى المجتمع (الترك، البويهيون ، السلاجقة ، الافارقة) • وقد ادى هذا الى جانب غياب السلطة المركزية المنظمة الى تخلخل البناء الاجتماعي وتخلخل البناء النفسي والاخلاقي واشاعة نوع من عدم المسؤولية وقد اكتشف المثقفون العرب ورجال الدين هذا الوضع ومارسو التوعية على مخاطره • غير ان فرص العلاج كانت اضعف من ان تقاوم ما احدثه التخريب السلجوقي من تجزئة وتخلف ، وقد افادت اوربا من هذا الوضع ويعكس لنا حجم الحملة الصليبية الاولى التي دخلت القدس وحجم الذين قتلوا من سكانها درجة العجز الاجتماعي عن تنظيم موقف قوة دفاعية[١٣] •

اما العوامل التي توفرت في اوربا فبالتأكيد يأتي دور الكنيسة في مقدمتها لذلك رفعت شعار استعادة بيت المقدس غير ان هذا لاينفي دور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فأحتلال الاراضي واقتطاعها شكل دافعاً اوربيا حقيقيا لاولئك الذين لم يجدوا فرصة تكوين ممالك في اوربا من الاقطاعيين والفرسان يضاف الى ذلك شعور التجار واصحاب الموانيء الاوربية بخطورة دور الموانيء العربية في سواحل الشام ومصر على التجارة الاوربية ، اضافة الى الوضع الاجتماعي السيء في اوربا وما عانته من مجاعة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وانحطاط

١٣ـ قدر عدد ضحايا الحملة الصليبية بحوالي سبعين الف مسلم من سكان القدس وحدها . انظر :

المطوي : محمد العروسي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (دار الغرب الاسلامي ، بيروت) ص٥٤

ولمزيد من المعلومات انظر ايضاً : لامب : هارولد ، شعلة الاسلام ، ترجمة محمود عبدالله يعقوب (مكتبة دار المتنبي ، بغداد ، ١٩٦٧)

اوضاع الطبقات الشعبية في اوربا بشكل دفع الناس الى البحث عن فرص احسن خارج بلدانهم .

ان امتداد الحروب الاوربية داخل الجزيرة والى مصر وتونس يعطي فكرة عن طبيعة الدوافع وراء الحروب الاوربية وهي دوافع قومية وحضارية اكثر منها دينية فالذي يريد تحرير بيت المقدس لايحتاج الى مهاجمة مصر او تونس ولا الى التوغل في الجزيرة حتى اطراف الفرات العليا . واذا اضفنا الى كل ذلك تحالف الملوك الاوربيين مع الحبشة واغرائها بتحويل مياه النيل ثم سعيهم للاستكشاف الجغرافي لقطع طرق التجارة العربية ادركنا طبيعة الاهداف بعيدة المدى التي كانت تحرك اوربا في حروبها ضد الامة العربية . وهي ذاتها الاهداف التي دفعتها باستمرار الى شعورها بالتناقض مع هذه المنطقة وسكانها حضاريا ، لقد تواصلت الحروب الاوربية قبل الاستكشافات الجغرافية بالحروب الاوربية بعدها وهكذا اصبحت تلك الحروب مقدمة لحركة الاستعمار الجديد في الوطن العربي .

الانحطاط وانتقال الحضارة

يعد المؤرخون الغزو المغولي اعلانا رسميا عن سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وانهاء السيادة العربية ، غير ان الاثر السلبي له لم يكن في هذا المجال فقط وانما في الثقافة ومارافق الغزو من تدمير للمراكز الحضارية وابرزها بغداد ، فهولاء الغزاة البدو لم يكونوا ليفهموا ماذا تعني دور العلم والمكتبات ولم يجدوا مانعا من تدميرها .

ان الذي يدقق في كتاب ابن حجر العسقلاني «الدرر الكامنة في اعلام المئة الثامنة» وهو من ابرز كتب المرحلة التي تلت الغزو المغولي ، يلاحظ الامور الجوهرية التالية :

اولا : ضعف الابداع الثقافي فأغلب الذين تضمن الكتاب تراجمهم ممن عدهم كتابا ومفكرين لم يكونوا بالمعنى الحقيقي كذلك ، اذ اقتصر دورهم على نقل المؤلفات القديمة واستنساخها واختصارها وتذييلها .

ثانيا : بروز ظاهرة الهجرة الى دمشق ومصر وبنسبة اقل الى الحجاز (مكة والمدينة) ولاسيما بين الكتاب والمفكرين ، ومثل هذه الهجرة التي تشكل موقفا سلبيا بالمقياس السياسي ، فأنها تؤشر انتهاء دور بغداد مركزا للحركة الفكرية بسبب الاحتلال وبالتالي هجرة المفكرين الى حيث يكون عملهم في جو من الحرية في تلك المراكز البعيدة عنه •

ثالثا – ان الاهتمام في النسخ والتلخيص انصب على كتب ليست ذات مساس مباشر بالحياة الاجتماعية واليومية وليس لها دور في تنشيط الوعي الاجتماعي للجماهير •

من هذه الملاحظات نستطيع الخروج بنتيجة : ان الضمور الثقافي الذي بدأ منذ الغزو البويهي ادى الى اشاعة التخلف والجهل ولم يبق ما يذكر الامة بشخصيتها سوى تراثها وحتى هذا التراث تعرض للتدمير فكان جهد القوى المتغلبة والاحتلالية منصبا على الثقافة وتجهيل الجماهير وصولا الى طمس الشخصية القومية للأمة ، ان هذا التوجه وجد له انعكاسا في ضعف وركة لغة التأليف ، بل وفي عدم جواز تسميتها لغة عربية وحتى الكافيجي (٧٨٨ – ٨٧٩هـ) الذي يعد واحدا من اعلام المدرسة التأريخية العربية لايستطيع القارىء الا ابداء الاسف على اللغة الركيكة التي كتب بها مؤلفه مع انه تنقل وعاش في مراكز ثقافية كمكة والقاهرة(١٤) ، ومثل هذا الضعف لم يكن ذاتيا في تخلف اللغة ذاتها بل لأن السيادة القومية للامة انهارت وانهارت معها مراكزها الثقافية النشطة وتفككت الوحدة الاجتماعية للامة اضافة الى ظهور اللغة الفارسية واستخدامها لغة للأدب ، وكذلك انتقال السيادة على الوطن العربي من العرب الى الاتراك الذين شجعوا اللغة الفارسية اولا ثم اعتمدوا اللغة التركية لغة رسمية للدولة واملاكها فيما بعد ، ومع ذلك وحتى مع هذا المستوى الضعيف من اللغة الادبية والعامة فأن اللغة بقيت تشكل خطرا على

---

١٤ – روزنثال فرانز ، علم التأريخ عند علماء المسلمين ، ترجمة د. صالح احمد العلي (مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٣) ، ص٣١٧ – ٣٧١

القوى الاجنبية لهذا شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر هجوماً شرسا متعدد الاطراف انصب على اللغة العربية في محاولة للقضاء عليها . ومرة اخرى نعود الى القول ان التحديات التي مثلها الترك والمغول والعثمانيون لم تكن تحديات حضارية ، فهذه الاقوام البدوية الرعوية كانت تعتمد على قدراتها البدنية اكثر من قدرتها الحضارية ومع ان الكثير منها كان وثنيا الا انه سرعان ماادرك استحالة البقاء على وثنيته في هذا المناخ الديني العام فأضطر الى اعتناق الاسلام ولم يكن النضج الاجتماعي الذاتي لهؤلاء الاقوام قد وصل الى درجة من الابداع الحضاري ، لذلك تبنوا حضارة الاسلام ، ولاسيما عندما اصبحوا في مواجهة مباشرة مع قوى اوربية اخذت تشق لها صعودا حضاريا خاصا ومتميزا ، كما أن اعتناق العثمانيين للاسلام لم يؤد دورا مهما في اغناء الحضارة العربية أو صمودها لانهم سعوا بأستمرار الى ابقاء الاسلام مجرد راية يجابهون بها الغرب ويظهر هذا جيدا في موقفهم من الاسلام حضارة وعلما ومحفزا دائما للتغيير يقول عبدالرحمن الكواكبي « لايخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، المختصة ما بين الانسان وربه لاعتقاده انها لاترفع غباوة ولاتزيل غشاوة .... على انه اذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لايعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد امره ومجاراة هواه »[١٥] ، ولم يكن التبني العثماني للاسلام مطلقا انما جاء في مرحلة اصبح فيها الاسلام نظاما عالميا اكثر مما هو ثورة ومبادىء اجتماعية ورؤية حية للحياة ، لذلك كان اعتناقهم له بصورته التي وصلتهم اولا ، وبمقدار اتفاقه مع مصالحهم ثانيا . فالعثمانيون كانوا يدركون انهم غير قادرين على مواجهة اوربا بالقوة وحدها فرفعوا معهم راية الحضارة الاسلامية ولكن في اطوارها الباهتة المتأخرة التي نقلها الاقطاع الاجنبي ، حضارة التشتت وسيطرة القوى المتغلبة وانعدام الوحدة السياسية والابداع الحضاري فكونهم جددا في

١٥ــ الكواكبي : عبدالرحمن ، الاعمال الكاملة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٥) ص١٥٣ .

الاسلام حرموا من قدرة فهمه واكتناه معنى رسالة النبي (ص) ، فشجعوا، خدمة لمصالحهم ، الرضوخ الاعمى للسلطة وطاعة اولى الامر واماتوا روح اصحاب الفكر وعدوا المعرفة عدوة لهم وحشروا اتباعهم في صفوف العلماء ليروضوا المؤمنين على الجمود والخمول للسلطة السياسية واضعفوا اللغة العربية وافقدوها نقاوتها[١٦] .

كان دخول الوطن العربي تحت السيطرة العثمانية قد تم في وقت اتسمت فيه اوضاع الدولة العثمانية بسمات معينة هي :ـ

اولا ـ توقف التقدم العثماني في اوربا بعد نجاح الاوربين في تطوير الاسلحة المستخدمة ولاسيما (المدافع) ، واذا كان القادة العسكريون يعدون فشل القوات العثمانية امام اسوار فينا هزيمة عسكرية فمن وجهة النظر التأريخية كان هذا الفشل هزيمة حضارية .

ثانيا ـ نشاط بعض الدول الاوربية للتقدم عبر البحر المتوسط أو حول افريقيا وصولا الى الشرق مما يهدد الحدود الجنوبية للدولة، وابرز دور في هذا النشاط كان الدور البرتغالي الذي عرف بعصر الاستكشاف الجغرافي .

ثالثا ـ نمو الدولة الصفوية في ايران وتهديدها طرق التجارة العثمانية ولاسيما طريق الحرير ، وظهور بوادر تفاهم بينها وبين الدول الاوربية ، فقد شهد القرن السادس عشر رجال دولة اوربيين يوجهون جهودهم للابقاء على العداء الفارسي للعثمانيين ، لاضعاف السلطان وصرفه عن العمليات العسكرية في اوربا ولمدة تزيد على عشرين عاما بعد ١٥٢٥م، وكان الامبراطور جارلس الخامس على اتصال بفارس حتى ساد الاعتقاد بأن اشتداد العداء في ١٥٣٤م يعود في بعض اسبابه الى تحريض الامبراطور،

١٦ـ حوراني : البرت ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول (دار النهار للنشر ، بيروت) ص٣٨٦ .

كما ان تجديد الشاه عباس الاول الحرب مع العثمانيين سنة ١٦٠١ كان بالحاح من (شيرلي)[١٧] المغامر الانكليزي الذي اصبح من مستشاري الشاه .

لهذا جاء توجه الدولة العثمانية الى الاقطار العربية في وقت تحتاج فيه الى الاصلاح لتجديد قواها واكتساب قدرة المجابهة مع الخصوم ، وكان واضحا ان ضمها الاراضي العربية لن يعود على تلك الاراضي بنفع ايجابي وانما على العكس فأنه يحولها الى منطقة صراع مع النفوذ الاوربي (البرتغالي) اولا ثم مع الصفويين ويعني انهاكها اقتصاديا واجتماعيا ، ومع الصفويين اخذت التسويات العثمانية شكل تنازل عن الاراضي العربية مقابل الاحتفاظ بالاراضي العثمانية الاصلية في حدود ماعرف اخيرا بتركيا ولعل مثال الحدود العراقية - الايرانية والاراضي التي استولى عليها الصفويون مقابل تسوية المشاكل مع العثمانيين خير دليل على ذلك[١٨] . وليس كما يعتقد بعض الباحثين ان سيطرة العثمانيين تعني حماية الوطن العربي من الغزو الاجنبي ، ان الميزة الوحيدة التي اتسم بها وجود الاقطار العربية تحت السيطرة العثمانية انها بقيت مجرد ولايات تتبع سلطة مركزية مقرها اسطنبول ، وانها لم تكتسب طابعا استقلاليا ، لقد حافظوا على العرب في الوطن العربي في وحدة ساكنة صامتة

١٧- الامبراطور جارلس الخامس ولد سنة ١٥٠٠ وتوفى سنة ١٥٥٨ احد اعظم ملوك اسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة . وشيرلي هو السير انتولي شيرلي (١٥٦٥ - ١٦٣٠ م) مغامر انكليزي عمل في الاراضي المنخفضة سنة ١٥٨٦ ونورماندي سنة ١٥٩١ وسفيرا للحصول على تحالف بين انكلترا وفارس ١٥٩٩ Encyclopedia Britannica (15th. Edition) vol.1 p.788. vol.9. p.137

وانظر ايضاً كتابنا عن العلاقات العربية - الفارسية ، دراسة تاريخية ، ص ٢٨ - ٢٩ .

١٨- انظر خارطة الدكتور عماد عبدالسلام في كتاب الحدود الشرقية للوطن العربي ، دراسة تاريخية ، منشورات جمعية المؤرخين والاثارين في العراق (بغداد ، ١٩٨١) . وكتابنا العلاقات العربية الفارسية ، ص ٣١ .

غير فعالة ، وكان السلاطين يهتمون بلقب حامي الحرمين اكثر من فهمهم لمعنى الحرمين والقدسية التي يتمتعان بها ، لذلك كانت نظرتهم الى العرب لاتختلف عن نظرتهم الى شعوب الامبراطورية الاخرى ، بل انهم من خلال ابقاء العرب متخلفين اسهموا في تسهيل مهمة اوربا اللاحقة في الوطن العربي ، ولاسيما انها بدأت تقطف ثمار النهضة اجتماعيا في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية واخذت تنشط في البحث عن مناطق النفوذ وهي تدرك جيدا القيمة الستراتيجية للوطن العربي غير أنها تدرك ايضا وبالدرجة نفسها انه من غير الممكن تجديد الحروب الصليبية ثانية بالصيغة الاولى ، لذلك استعاضت عنها بحركة ارتياد واسعة النطاق استهدفت الاقطار العربية في شكل جولات ورحلات كشفية للعديد من الاوربيين ومن مختلف الجنسيات ، ممن اظهروا اهتمامات متعددة ومتنوعة فبعضهم عني بدراسة القبائل وبعضهم اتجه لدراسة الطرق والآخر اتجه الى دراسة الآثار واتصلوا بالسكان بمختلف الوسائل، في وقت كانت سفن البرتغاليين تمخر البحار امام الشواطىء العربية ولاسيما الجنوبية منها .

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدت اوربا نمو قوى الدول القومية (هولندا ــ فرنسا ــ انكلترا) وادى ظهورها الى بدء مرحلة جديدة من التنافس بينها على مناطق النفوذ وبينها مجتمعة وبين الدولة العثمانية. اكتشف الطرفان الاوربي والعثماني حركة تجديد في الوطن العربي تهدف الى تجديد الفكر العربي وصولا الى تجديد الروح العربية ففي حين سلك الاوربيون مسلك القوة الهجومية المبيدة بسبب اختلافاتهم مع السكان حضارة ودينا ، فالعثمانيون الذين يجمعهم بالسكان دين واحد لجأوا الى سياسة الاستبداد في كم الافواه ومنع الكلمة الحرة .

نجحت القوى الاوربية (فرنسا وانكلترا) في زرع نفوذها التجاري في السواحل العربية ، حيث تبعد المسافة عن مركز السيطرة العثمانية ، وتضعف القوة العثمانية ، وواصلوا الجهود الرامية الى اسكات مواقع القوة العربية،

ولاسيما في الخليج العربي والمغرب العربي ، التي كانت توفرها بعض الامارات المحلية غير انهم نجحوا في اخضاع تلك المواقع تدريجيا ، وبأستثناء الغزو الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨، الذي كان موجها الى منطقة تقرب من قلب الدولة العثمانية فأن ايا من الدول الاوربية بما فيها فرنسا لم تفكر في استخدام القوة في الاراضي العربية التي تشكل القوس الجنوبي للدفاع العثماني ، وذلك لعاملين اساسين هما :ـ

١ ـ التنافس الاوربي (انكلترا ـ فرنسا ـ المانيا ـ ايطاليا ـ النمسا ـ روسيا) على اقتسام مناطق النفوذ وعدم اطمئنان أحد الاطراف الى قدرته على الانفراد بتلك المناطق، وهي حالة ادت الى تحول المتنافسين من حيث لايدرون الى عامل ابقاء على الدولة العثمانية .

٢ ـ وجود الدولة العثمانية التي تعد الاراضي العربية واقعيا املاكا تابعة لها والتي لم تبلغ بعد حد السقوط .

اكدت حقبة الصراع والتنافس الى حد كبير الأهمية الستراتيجية للوطن العربي ، وحجم المصالح الاستعمارية فيه ، وبالتالي لم تعد مسألة الدولة العثمانية بالنسبة الى الغرب تعني غير كيفية انتزاع الوطن العربي منها اولا ومن هو الذي سينتزع اوسع المساحات وافضلها ثانيا ؟ لذلك كلما برز ضعف الدولة العثمانية في مكان ما سارعت احدى الدول الى انتزاع ما تستطيع دون أن تهمل اهمية التفاهم مع الاطراف الاخرى ، فأخذت فرنسا الجزائر ، بينما اتجهت بريطانيا الى مصر ومقابل انفرادها فيها اطلقت يد فرنسا في المغرب العربي ، وهكذا الى ان استطاعت الدول الاوربية فرض سيطرتها على مساحات واسعة من الوطن العربي .

الفصـــل الثانـــي

الامة العربية والتحدي الاوربي في التأريخ الحديث •

(المرحلة الاستعمارية)

الاستعلاء الاوربي

تقدم الاوربيون في عصر الاستعمار الى الوطن العربي بغطرسة واستعلاء عنصري لم يشهدهما التأريخ من قبل وعبروا عن هذه الغطرسة والاستعلاء بادعاء التفوق الحضاري وانفراد الجنس الابيض بالريادة الحضارية وانكار قيمة أية حضارة اخرى ، وعدم الاعتراف بقابلية بقية الشعوب على العمل الحضاري ، والتقليل من قيمة الحضارات القديمة ومن هذه النظرة اشتقوا نظرة خاصة نحو العرب فأنكروا قيمة حضارات وادي الرافدين والنيل وعدوها مرحلة ماقبل العقل وحددوا بداية النشاط الفعلي بفلسفة اليونانيين التي لم تبدأ الا في القرن السابع ق٠م ، بعد مسيرة ٤٥٠٠ سنة من الحضارة في الوطن العربي واتخذوا موقفا سلبيا من حضارة العرب في الاسلام والدور الذي أدته الاندلس في تمدن اوربا ، فانكروا علوم العرب وفلسفتهم بكونهما عربيين باللغة فقط وذهبوا بأنهما كانا يونانيين وساسانيين بالمحتوى[1] وعدوا العرب جنسا منحطا وكمية مهملة[2] ، لذلك عند الحديث عن العرب كانوا يطلقون عليهم كلمة (بلدي) و(اهلي) وما يقابلها من كلمات في اللغات الاوربية الاخرى ، وواضح ان مثل هذه التسميات تهمل الصورة الثقافية للعرب فتنظر اليهم وكأنهم حيوانات وحشية تعيش في الاقطار التي اتصلوا

---

١ ـ البرت حوراني ، ص١٥١ رأى رينان .

٢ ـ جوليان : شارل اندري ، افريقيا الشمالية تسير ، ترجمة مجموعة من الاساتذة (الدار التونسية للنشر) ص٧١ .

بها ، ومن هنا شعر الاوربيون بالاستعلاء وبأنهم لن يرتكبوا أثما اذا ما استأصلوا شأفة الامة وذبحوها[٣] ، وعلى مدى اكثر من قرن من الزمن مارس الاستعمار الانكليزي والاسباني والفرنسي ، دوراً منهجيا في الاساءة الى الحضارة العربية[٤] .

ادت هذه النظرة الى نشوء اعتقاد خاطيء في اوربا يعد الاستعمار اداة لنقل الحضارة الى الشعوب غير المتحضرة ومنها العرب ، يصف السير برسيفال جريفيش الاستعمار بأنه كان على ممر الاجيال « العملية التي بها تنتشر الحضارات »[٥] ومن هنا نشأ في ذهن الاوربي مبدأ القوة المتمدنة ، ولكن هل يصح ان اية قوة هي متمدنة ؟ أو ان التمدن يحتاج الى القوة ليعمم ؟ قد تتغلب قوة بربرية همجية لا حضارة لها ولا مدنية على قوة متحضرة ، فقد تغلبّ الاخمينيون على بابل وآشور ومصر وهي مراكز حضارية ذات مستوى ثقافي اعلى مما كان عليه الاخمينيون[٦] ، الم يتغلب الرومان وهم غير متحضرين على اليونان وهم في روعة حضارتهم ؟ ثم الم تتغلب القبائل الجرمانية الهمجية على روما ذات المدنية الراقية ؟ ان النماذج المتعددة في التأريخ تفصح دائما على ان القوة الغالبة لاتتقدم معها الحضارة او حتى بذور الحضارة، فالمستعمرون الاوربيون الذين بسطوا نفوذ دولهم على العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يكونوا كذلك ، وعلى العكس ربما ان القوة الغالبة لاتفلح في اقامة نشاط حضاري أو مدنية راقية الا بعد زمن طويل لانها لاتملك الاستعداد الكافي لذلك فعندما قضت القبائل اليونانية الرعوية على الحضارة المينية في جنوب بلاد الاغريق في اواخر الالف الثاني

---

٣ ــ ارنولد توينبي : ٥٢/١ .

٤ ــ روجيه غارودي : حوار الحضارات ، ٩٦ .

٥ ــ امرسن : روبرت ، من الاستعمار الى الاستقلال ، ترجمة نقولا الدر ، (الدار الشرقية للطباعة بيروت ١٩٦٤) ص١٨ .

٦ ــ باقر : طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، (دار المعلمين العالية ، بغداد ١٩٥٩) ، جـ٢ / ٤١٦ .

ق٠م لم تظهر الفلسفة والتأريخ الا في حوالي ٧٠٠ق٠م[٧] ، اذن هذا الادعاء ليس له نصيب من الصحة ولم يكن الا لاظهار تفوق الاوربي الذي يشعر بالنقص ازاء اربع حضارات عظيمة قدر له ان يغزوها ويسيطر على املاكها . ولانه يمتلك القوة فقد مارس عملية اسقاط شعوره بالنقص هذا على اصحاب تلك الحضارات وهذا هو شعور ماكولي عندما كتب في مذكراته سنة ١٨٣٥ يقول « ان رفا واحداً في مكتبة اوربية جيدة يعادل جميع آداب الهند وبلاد العرب »[٨] متناسيا ان هذا الرف كتبه ابن سينا والرازي وابن رشد وابن خلدون وابن الهيثم وابن ماجد وان مافيه من اداب اليونان لم يصل الى اوربا الا عن طريق العرب وان اوربا ما كانت تعرف في ثقافتها الا قصص الف ليلة وليلة ، وحتى القرن الثامن عشر والاوربيون يحاولون ان يتعاملوا مع التراث الحضاري ليفهموه ، فهل كان الاوربيون حقا يمثلون قوة نقل للحضارة ؟ يقول (جول فيري في كتابه حكومة الجزائر) واصفا المعمر الاوربي « تأملنا فيه عن قرب وفحصناه من خلال مظاهره الخاصة والعامة فوجدناه ضيق الافق ولم تكن هاته الذهنية قطعا لتسمح بتحكيم المعمر في مصير الاهالي ولو بنصيب يسير »[٩] ، هل كان هذا الاوربي ، اذن ، هو الذي ينقل الحضارة ؟ واية حضارة ؟ تجارة الرقيق ابادة الهنود الحمر ، تذويب الشعوب في جنوب المحيط الهندي ، جرائم ليوبولد في الكونغو ، الانحطاط الذي تسببت فيه الحضارة الاوربية لثلاثة ارباع البشرية ، ربما هذه هي الحضارة التي يعنونها! كان هذا الاستعلاء كله يهدف لفرض حضارة اوربا على شعوب الحضارات القديمة ، لاقناعها بأن عصر حضارتها انتهى وان علمها بلي ومات ولا رجعة لها[١٠] ، ولم يعد يتوافق مع الزمن الجديد وان الحضارة الاوربية جاءت بالكثير الجديد المختلف والمتميز والمبتكر مما لايبقى مجالاً للتوفيق وما

---

٧ ـ طه باقر ، مقدمة في تأريخ الحضارات ، ج٢/ص٢٢٦و٥٨٠ .

٨ ـ امرسن ، من الاستعمار الى الاستقلال ص٣٧ .

٩ ـ شارل اندري جوليان ، افريقيا الشمالية تسير ، ص٤٣ .

١٠ـ روجيه غارودي . حوار الحضارات ، ص١٠١ .

على الشعوب الا ان تقبل بهذا الواقع • يرى امـرسن ، ان عمليـة التبعيـة الايديولوجية للغرب تتم بعد ان تجتاز الشعوب المغلوبة مرحلة الشعور بالبغض للاجنبي وتمارس عملية قهر الذات وقبول التفوق الاجنبي بلا حرج ، وهو يرى استنادا الى المنطق الهيغلي هذا القبول يتحقق في مجتمعات تفخر بنفسها وتأخذ في ذات الوقت بالمدنية الغربية[١١] •

مارس الاستعمار الاوربي صيغا متعددة في فرض التفوق الحضاري على الشعوب فلم يكن الفرض المباشر هو انجح الاساليب دائمـا وانمـا في بعض الاحيان كانت تأخذ طابع قتل الحافز الذاتي على تحقيـق التقـدم ومـن ثم الوصول بالشعوب المضطهدة الى احدى نتيجتين ، اما ان تبقى متخلفة او ان تختار التقدم بالانتماء الايديولوجي الى النموذج الرأسمالي وفي كلتا الحالتين لن يحصل التقدم ، فالاختيار الاول (البقاء مع التخلف) هو في حقيقة الامر ليس خيارا ولكنه فرض مقدم في صورة خيار طالما ان القوة الغالبة هي التي تمارس عملية طرح الخيارات وتنفيذها ، والاختيار الثاني (التقدم علـى نمط القوة الغالبة) وهو تقدم زائف لن يرقى الى كل الاشواط الحقيقية للتقـدم وانما الى القدر الذي يبقى التبعية السياسية والثقافية والاقتصادية قائمة لان القوة المتغلبة المنطلقة من مبدأ الغطرسة الاستعمارية من غير المعقول ان تفكر بتعزيز قدرات الشعوب الخاضعة لاحتلالها فالارتفاع بالقـدرات الذاتيـة للشعوب المغلوبة ينزل الضربة القاضية بالمصالح الاستعمارية ، لذلك وقفت الدول الاوربية ضد ابراهيم بن محمد علي باشا عندما اراد ادخـال مظاهـر الاصلاح والتحديث في سوريا بتنظيم الضرائب وفرض التجنيـد الاجبـاري واقرار الامن وحرضوا السكان ضده في لبنان[١٢] ، ولذلك ايضـا ركـزت

١١ـ امرسن ، من الاستعمار الى الاستقلال ، ٢٤ .

١٢ـ البرت حوراني ، ٨٢ مثل هذه المواقف تكررت بأستمرار حيث تظهر جهود لتحسين الاوضاع في الاقطار المحتلة فلقد وقفت بريطانيا ضد تشريع قانون التجنيد الاجباري في العراق ، انظر في هذا المجال الدكتورة رجاء حسين حسني الخطاب ، تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره في الحركة الوطنية ، الدار الوطنية بغداد ١٩٨٠ .

توصية لجنة (كامبل بنرمان) على عدم السماح للعرب بأن يتعلموا أو يأخذوا بوسائل العلم والتكنلوجيا .

انطلق مبشروا القوى الاستعمارية الاوربية الرئيسية في الترويج للعنصر الانجلو سكسوني الذي « اختاره الله لتحضير العالم »[١٣] ومنذ ذلك الوقت اعلنت الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا والمانيا شعاراتها الرامية لبسط سيطرتها من منطلقات عنصرية كانت تمثل منطلقها في سياساتها على النحو التالي ، فقد ادعت بريطانيا بأنها المبشرة بحضارة الرجل الابيض .

« نحن الانكليز الذين مهما تكن نقائصنا فأننا اكثر استعداد من اي جنس آخر بحكم التراث والمزاج والمران لقيادة الشعوب البدائية في طريق التقدم والحضارة » ، كما بشرت فرنسا « برسالة فرنسا » وبشر الالمان بشعارهم العنصري « المانيا فوق الجميع » .

العداء للاسلام وتشجيع الحركات المضادة له

انصب العداء الاوربي اول الامر على الاسلام واستهدف بالدرجة الاولى ترويج اراء بعض مفكري الغرب من ان الاسلام والعلم لايتفقان ، مما يستوجب القول استنتاجا ان الاسلام والمدنية لايتفقان ، ويعبر (ارنست رينان) عن هذا الرأي بقوله « كل من كان مطلعا بعض الاطلاع على احوال زماننا يشاهد بوضوح انحطاط البلدان الاسلامية الحالي ، وتقهقر الدول الخاضعة لحكم الاسلام ، وانعدام معالم الفكر لدى الشعوب التي اقتبست عن هذا الدين وحدة ثقافتها وتربيتها ، فجميع من يأتون الشرق أو افريقيا يدهشهم ضيق التفكير المحدود بصورة حتمية لدى المؤمن الحقيقي وذلك الطوق

---

١٣ ــ جوليان : كلود ، الامبراطورية الامريكية ، ترجمة فؤاد شاهين (دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٠) ص٦٣ أول من بشر بهذا الشعار المبشر البروتستانتي جونيا سترونغ الذي الف كتاباعام ١٨٨٦ سماه (بلادنا) ص٦٣

الحديدي الذي يطوق رأسه فيجعله مغلقا باحكام في وجه العالم وعاجزا عن تلقن أي شيء او الانفتاح على اية فكرة جديدة »[١٤] .

لماذا هذا الموقف من الاسلام ؟

قد يكون هذا الموقف رد فعل ناتج عن الاختلاف في العقائد فأوربا المسيحية كانت في ذلك الوقت تعيش حماسا دينيا تبناه المثقفون وعممه المبشرون يقول ادوارد ميدابرل « ان الرأي العام الامريكي فيما يتعلق بالشرق قد خلقه المبشرون منذقرن كامل فاذاكان الرأي العام الامريكي قدطويت عنه بعض المعلومات او غذى بمعلومات خاطئة او دفع الى موقف عدائي فأن المبشرين هم الملومون في اكثر ذلك لان النظر الى التأريخ على اساس انتشار النصرانية قد حمل هؤلاء المبشرين على ان يقدموا لنا في الولايات المتحدة صورة ناقصة مشوهة أو ساخرة في بعض الاحيان للمسلمين والاسلام »[١٥] .

الواقع ان هذا قد يكون سببا غير انه محدود فالمبشرون والمثقفون في اوربا لايصنعون السياسة انما كانوا يخدمونها ، السبب الحقيقي في العداء هو التناقض الحضاري الذي تشعر به اوربا المادية في عصر النهضة الصناعية والاستعمار مع الاسلام الروحي وما يمكن ان يحدث عن التفجر الروحي من قوة وتهديد للمصالح الاوربية يقول كاردنر « ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف اوربا »[١٦] ، ويقول لورانس براون « الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قدرته على التوسع والاخضاع ، وفي حيويته ، انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الاوربي » . ويضيف « اذا اتحد المسلمون

١٤ــ مقتبس من البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ص١٥١ .

١٥ــ فروخ : د. عمر ، د. مصطفى الخالدي ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية (بيروت ــ المكتبة العصرية ، ١٩٧٣) ، ص٢٣ .

١٦ــ ن.م : ص٣٦ .

في امبراطورية عربية امكن ان يصبحوا لعنة على العالم او امكن ان يصبحوا ايضا نعمة ،أما اذا بقوا متفرقين فأنهم حينئذ بلا وزن ولاتأثير»[١٧] . ويقول جيفورد بالكراف « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها الا محمد وكتابه »[١٨] . ويقول القس سيمون « ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الاوربية »[١٩] .

ليس هذا فقط انما وربما هذا هو السبب الحقيقي فالقرنان الثامن عشر والتاسع عشر شهدا محاولات تجديد في الفكر الاسلامي بدءبحركة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية والسنوسية المتفرعة عنها الى افكار جمال الدين الافغاني وتلاميذه وثورة المهدي في السودان وافكار ابي الثناء الالوسي في العراق وامتدادات هذه الحركة في المغرب العربي وحركة محمد اقبال في الهند، ورغم مايمكن ان يقال عن طبيعة واتجاهات التجديد في هذه المحاولات الا انها وفي حدودها تلك شكلت عامل تخوف كبير في اوربا ،وليس بعيدا انها كانت وراء احساس الاوربيين بخطر الاسلام على مصالحهم ولاسيما ان هذه المحاولات ربطت بين التجديد وايقاظ الامة (الجهاد) وبين الصمود بوجه المحاولات الاوربية للسيطرة على الوطن العربي .

اذن المصالح الاوربية والنظرة العنصرية وراءها والبناء الروحي لحضارة العرب هي الامور التي تثير العداء الاوربي للامة العربية والاسلام ، ومن هنا اتجهت سياسة اوربا الى ابتكار الصيغ التي بموجبها يتم التغلب على روح الاسلام او في الاقل تجريد الاسلام من روحه تمهيدا لخلق حالة من التخاذل الروحي والشعور بالنقص وتطويع العرب للسيطرة الاوربية ومن هذه الصيغ :

١٧- التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٣٧ ، ١٨٤ .
١٨- عبدالحميد : د . محسن ، حقيقة البابية والبهائية ، (بيروت ١٩٧٥) نقلا عن ال شاتيلية في الغارة على العالم الاسلامي ، ص٤٤ .
١٩- التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٣٢ .

اولا ـ التبشير الديني

كان في مقدمة هذه الصيغ حركة التبشير الديني التي بدأت عندما شعرت الدولة العثمانية ، وهي تدرك ابعاد التنافس الاوربي ، بأنها ازاء هزيمة خطيرة مالم تبدأ عملية التجديد ، وبضغط الدول الاوربية المصدرة لوسائل المدنية والتقدم تحولت حركة اصلاح الدولة العثمانية الى فرصة تحصل بموجبها الدول الاوربية على الامتيازات التي تمكنها العمل بحرية في اراضي الدولة العثمانية ، وكانت اولى تلك الامتيازات هي حق الدول الاوربية في حماية الطوائف الدينية التي تدين بالمسيحية وما ان حل القرن التاسع عشر حتى كانت كل دولة اوربية تتمتع بحق حماية طائفة دينية من الطوائف المسيحية من رعايا الدولة العثمانية ، وسرعان ماتحول هذا الحق الى حركة تبشير واسعة النطاق شملت الاراضي العربية دون استثناء فقد كان في سوريا وحدها (٣٨) بعثة تبشيرية سنة ١٩١٢[٢٠] .

ومع ان ظاهر حركة التبشير هو نشر المسيحية غير ان الواقع لم يكن كذلك فقد كانت لها اهداف اخرى ترتبط بحركة الاستعمار والمصالح الاستعمارية ونفوذ الدول المستعمرة ، فكثيراً ما كان الرجال العسكريون في الدول الاوربية يحثون حكوماتهم على بث المبشرين في العالم وفي هذا المجال لاننسى نصيحة الجنرال (هايغ) للحكومة البريطانية بأن ترسل مبشريها الى شبه جزيرة العرب[٢٢] لما يتوقعه من دور مؤثر لها في المستقبل ، وعلى هذا الاساس اصبحت لحركة التبشير اهداف متعددة في الاقطار العربية ، ومنها بث الافكار الاوربية ، وخلق تخاذل روحي وشعور بالنقص وحمل الجماهير على القبول بالخضوع للمدنية الاوربية المادية ، وتبديل عقائد السكان وانماط حياتهم[٢٣] .

٢٠ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٨٠ .
٢١ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٣٥ .
٢٢ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٣٥ .
٢٣ـ د . محسن عبدالحميد ، حقيقة البابية والبهائية ، ص١٧ .

ثانيا ـ تشجيع الحركات المضادة للاسلام ٠

ومن هذه الصيغ ايضا تقديم نماذج من المفكرين المرتبطين بالمصالح الاوربية ودفعهم الى واجهات المجتمعات الاسلامية على انهم مجدودن ومن هنا شهد الوطن العربي والعالم الاسلامي حركات متعددة منها :

١ ـ حركة أحمد خان في الهند في بداية القرن التاسع عشر ٠

٢ ـ حركة الميرزا غلام أحمد القادياني في القرن التاسع عشر ٠

٣ ـ البابية في القرن التاسع عشر في ايران ٠

٤ ـ البهائية في ايران ٠

٥ ـ حركة سليمان المرشد العلوي الاله في سوريا اثناء الاحتلال الفرنسي ٠

لقد تركزت جهود هذه الحركات على مسألة رئيسة هي اضعاف روح الجهاد والدعوة الى الرضوخ للاستعمار[٢٧]، يقول أحمد القادياني : « قضيت عمري في تأييد الحكومة الانكليزية ونصرتها وقد الفت في منع الجهاد ووجوب طاعة اولى الامر من الكتب والاعلانات والنشرات ما لو جمع بعضها الى بعض لملأ خمسين خزانة وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وتركيا » ، ثم يقول « : لقد ظللت منذ حداثة سني اجاهد بلساني وقلمي لاصرف قلوب المسلمين الى الاخلاص للحكومة الانكليزية ٠٠٠ والغي فكرة الجهاد التي يدين بها معظم جهالهم والتي تمنعهم من الاخلاص لهذه الحكومة »[٢٨] ٠

لقد تعاونت هذه الحركات مع جهات متعددة فالبابية خلقتها روسيا كما خلقت البهائية منها فيما بعد وكان لهم معبدان في روسيا احدهما في باكو والثاني في شق اباد[٢٩] ، وانضم اليهود في ايران بكثرة الى

٢٧ـ د . محسن عبدالحميد ، حقيقة البابية والبهائية ، ٢١ ـ ٢٢ ٠

٢٨ـ د. محسن عبدالحميد ، حقيقة البابية والبهائية ، ص٢٤٧

٢٩ـ ن ٠ م : ، ص١١٩ وما بعدها ، ص١٢٦ ٠

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف كانت حركة التبشير تستخدم التنصير المباشر بوسائل شتى ، منها الاقناع أو الترغيب أو المال أو استغلال ظروف فردية خاصة أو عن طريق خدمات المستشفيات أو المدارس وقد وصف (بن روز) رئيس الجامعة الامريكية حتى ١٩٥٤ التعليم بأنه الوسيلة الثمينة التي استطاع بها المبشرون تنصير سورية ولبنان(٢٤) ! فالاستعمار الاوربي علق اهمية على التعليم الذي نشره المبشرون لانه يجعل السكان تحت تأثير التعليم المسيحيي الذي يستمر ليشمل حتى اولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة في اوطانهم ، لذلك حظى المبشرون بحماية الدول الاوربية ، وقد ظهر ارتباطهم بها عندما تغير اسلوب عملهم فحتى قبل الانتداب في اوائل القرن العشرين كان المبشرون يحرصون على استمالة الناس حتى وان اضطروا لممارسة بعض التناقض مع المسيحية ، أما بعد الانتداب فبسبب شعورهم بحماية الدول المنتدبة فأنهم راحوا يخلقون المشاكل الدينية والقومية بين ابناء الوطن ويقومون بأعمال استفزازية تفجر العلاقات الاجتماعية(٢٥) .

لقد حرصت الدول الاوربية على حماية المبشرين وثبتت حقوقهم وحرية عملهم في المعاهدات التي عقدتها مع الانظمة التي خلقتها بعد الحرب العالمية الاولى وفي دساتيرها ، ولعل استعراض المادة ١٢ من المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٢٢ ، يوضح ذلك بجلاء .

« لاتتخذ وسيلة ما في العراق لمنع اعمال التبشير او للمداخلة فيها او لتمييز مبشر ما على غيره بسبب اعتقاده الديني او جنسيته » وقد انسحبت هذه المادة على القانون الاساس العراقي(٢٦) .

٢٤ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص٤٦ .

٢٥ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص ٥٢ .

٢٦ـ وزارة الخارجية العراقية : مجموعة المعاهدات والاتفاقيات الثنائية بين العراق وبريطانيا (مطبعة الحكومة ـ بغداد ـ ١٩٦١) ص ٢٣ ايضا القانون الاساسي العراقي (مطبعة الحكومة بغداد ـ ١٩٣٧ .) مادة ١٦ .

البابية فدخلها منهم في طهران (١٥٠) وفي همدان (١٠٠) وفي كاشان (٥٠) وفي كلباكان (٨٥) كما انضم لها حبران هما الياهو ولازار[٣٠] ، وقد حظيت البابية بأهتمام الاوربيين على اختلاف ميولهم ومعتقداتهم[٣١] ، وظهر التأثير الماسوني الصهيوني في البهائية واغلب الظن انه حدث عند التقاء البهائيين الماسونيين في أدرنه سنة ١٨٦٣ قبل نفيهم من العثمانيين[٣٢] ، اما صلتهم بالصهيونية فتمت في فلسطين عندما نفي البهاء واتباعه الى عكا[٣٣] .

وظهر هذا في شكل دعوة صريحة للصهيونية يقول الميرزا حسين : « هذا يوم فاز الكليم بأنوار القديم وشرب زلال الوصال من هذا القدح الذي به سجرت البحور . قل تالله الحق ان الطور يطوف حول مطلع الظهور والروح ينادي من في الملكوت هلموا وتعالوا يا ابناء الغرور هذا يوم فيه سرع كرم الله شوقا للقائه وصاح الصهيون قد اتي الوعد وظهر ما هو المكتوب في الواح الله المتعالى العزيز المحبوب »[٣٤] .

ويقول عبدالبهاء ابنه : « وفي زمان ذلك الغصن الممتاز وفي تلك الدورة سيجتمع بنو اسرائيل في الارض المقدسة . وتكون امة اليهود التي تفرقت في الشرق والغرب والجنوب والشمال مجتمعة .. » ثم يقول « فانظروا الان

٣٠ــ د. محسن عبدالحميد ، حقيقة البابية والبهائية . ص١٢٩ .
٣١ ــ د . محسن عبد الحميد ، حقيقة البابية والبهائية ، دافع عنها جولد زيهر في كتابه العقيدة والشريعة في الاسلام وكتب عنها اللورد كرزن في كتابه ايران والمسألة الايرانية واستلين كانتر في كتابه الدين المقارن وبراون في كتابه التأريخ الجديد ومستندات البابية وفاميرى في كتابه الاكادمية والكونت جوبيتر في كتابه الاديان والفلسفة في آسيا الوسطى وجيمس دارستر في كتابه ايران نظرة ادبية وتأريخية ونيقولاس في كتابه على محمد الباب والليدي شيل في كتابها اللمحات في حياة وعوائد الايرانيين والدكتور جين في كتابه اتحاد الاقوام والاديان .
٣٢ــ عوف : د . احمد محمد . خفايا الطائفة البهائية . (دار النهضة العربية مصر ١٩٧٢) ص١٠٣ .
٣٣ــ ن.م ، ص١٠٩ .
٣٤ــ د . محسن عبدالحمبد ، حقيقة البابية والبهائية ، ٢٣٥ .

تأتي طوائف اليهود الى الارض المقدسة ويمتلكون الاراضي والقرى ويسكنون فيها ويزدادون تدريجيا الى ان تصير فلسطين جميعا وطنا لهم »[٣٥] .

لقد اجتمع المجلس الاعلى للطائفة البهائية في فلسطين وانتخب صهيونيا امريكيا اسمه ميسون ليكون رئيسا روحيا لجميع افراد الطائفة البهائية في العالم[٣٦] .

وقد احتضن الانكليز البهائية وسهلوا طبع كتبها في الهند مستفيدين من تحريم البهاء للجهاد[٣٧] .

ثالثا ـ الماسونية

من الحركات التي تعرض لغزوها الوطن العربي الحركة الماسونية التي رافقت في زحفها الحملة الفرنسية على مصر عندما اسس الجنرال كليبر محفل ايزيس[٣٨] ، ويسود الاعتقاد ان الماسونية هي الاسم المعاصر لحركة قديمة اسمها الجمعية الخفية ظهرت في عصر المسيح وكان هدفها تكذيب نبؤته في مستقبل الهيكل « سيهدم والايبقى فيه حجر على حجر » ، وفي عام ١٧١٧ استبدل الاسم بالماسونية مع الاحتفاظ بنفس الاهداف الاصلية لها ، فالماسونيه اذن رافقت عصر الاستعمار وتوجهت معه الى الوطن العربي لذلك لم يكن عجيبا ان تتبنى الدول الاستعمارية (فرنسا وايطاليا والمانيا وبريطانيا وامريكا) محافلها ، فكانوا يتبنون تأسيسها وحمايتها في اقطار الوطن العربي ومع اتساع مصالحهم كانت المحافل الماسونية تتسع وتنتشر فما ان حل عام ١٨٧٧ الا وكان في مصر وحدها (٣٩) محفلا عدا الدرجات العليا[٣٩] وانتشرت ايضا في لبنان

٣٥ـ د. محسن عبدالحميد ، حقيقة البابية والبهائية ، ص٢٣٥

٣٦ـ د . أحمد محمد عوف ، خفايا البهائية ، ١١٩ .

٣٧ـ ن . م ، ١٣٢ . البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص١٥٦ .

٣٨ـ الزعبي : د محمد على ، حقيقة الماسونية (معتوق اخوان ، بيروت ١٩٧٤)

٣٩ـ قرقوط ، د. ذوقان : الماسونية العربية (قضايا عربية ، ١٩٧٥) ، العدد ٩ ص١١

حيث تأسس اول محفل سنة ١٨٩٤ وكذلك في سوريا[٤٠] ، أما في فلسطين فقد تأسس اول محفل في ١٨٧٣ لتنتشر بعدها في كل مدن وقصبات فلسطين دون استثناء[٤١] ، بينما تأخر انتشارها في العراق الى مابعد عام ١٩١٩[٤٢] .

ولم تستطيع الماسونية ان تخفي اهدافها الحقيقية المنطلقة من طبيعتها كحركة صهيونية عالمية تستهدف اعادة اليهودي الى ارض الميعاد وتحريره من عقدة الاحتقار التأريخي عن طريق خلق مجتمعات ماسونية تحميه[٤٣] ، وهي في سبيل تحقيق هدفها تعاونت مع كل اشكال الاستعمار ، يقول القائد البريطاني لسلي الذي قاد الجيش البريطاني وقضي على ثورة عرابي ١٨٨٢ في مصر . « انني استسهلت الصعب وسخرت بالاهوال في كل البلاد لانني حيث توجهت كنت القى اخوانا من الماسون يرحبون بي ويساعدونني على ما اريد ولست ارتاب في ان نجاحى كان لأني استاذ في الماسون »[٤٤] .

وقد ادت المحافل الماسونية في مصر دورا في خلق طبقة من الماسونية تمتد في مختلف مرافق الحياة الاجتماعية (سياسية ، اقتصادية ، ثقافية) ولعل ابرز رجالها ادريس راغب بك مؤسس حزب مصر الفتاة عام ١٩٠٨ الذي طالب ببقاء الاحتلال البريطاني لحماية القومية المصرية ، ومحمد وحيد الايوبي موسس الحزب الوطني الحر[٤٥]، وفي عهدها وجه المحفل الاكبر الوطني المصري نداءه الى المحافل الماسونية في فلسطين وعموم سكانها في ٢ نسيان ١٩٢٢ ورد فيه « ياأهل فلسطين تذكروا ان اليهود قد ركبوا متن الغربة فافلحوا ونجحوا ثم هم اليوم يطمحون للرجوع اليكم لفائدة وعظمة الوطن المشترك بما احرزوه

٤٠- د.ذوقان قرقوط، الماسونية العربية .
٤١- ن . م ، ص١٣ .
٤٢- ن . م ، ص١٣ .
٤٣- ن . م ، ٢٠ .
٤٤- ن . م ، ٢٣ .
٤٥- ن . م ، ٢٢ .

من مال وما اكتسبوه من خبرة وعرفان »[٤٦]، لقد ركزت الماسونية على تخلي الماسوني عن جنسيته وقوميته ليكون رفيقا لليهود يعمل لخدمتهم ولخدمة الدين اليهودي »[٤٧] .

ان توافق جهود التبشير مع التوجه بالقوة الاوربية المسلحة الى الوطن العربي ، وفي الوقت نفسه قيام نشاط ثقافي مكثف مضاد للاسلام نشط له مثقفوا الغرب ورجال الدين فيه والحركات التي اوجدتها اوربا المعادية، شكل ضغطا عنيفا وحادا على الامة العربية ومفكريها خاصة في مثل حالة التخلف التي كانت مخيمة على الامة العربية ، فدفعت بجهود اولئك المفكرين الى الزاوية الضيقة فاقدة القدرة على التأثير ، وكان هذا القدر المتحقق في التخريب الثقافي مع ماتحقق على صعيد كبح جماح المقاومة المسلحة كافياً لفرض الانكفاء على مرحلة من الجهود لتجديد روح الامة ، وقد بدت أثار هذا الانكفاء في حالة الانبهار بالحضارة الاوربية وعدم التنبه الى خطورة التعامل مع اوربا بمعزل عن الوعي بالسمات الخاصة بالامة واسس تطورها والقبول بالنفوذ الاجنبي طرفا في احداث داخلية ودولية .

حققت اوربا في منتصف القرن التاسع عشر قدرا كبيرا من التقدم في سياستها الرامية الى تكريس مصالحها في التخريب الثقافي وتسميم افكار العرب والمسلمين وتقليل قيمة الاسلام في نظرهم وهدم روحهم النضالية واسقاط الحاجز النفسي بينهم وبين اوربا وافادت من الحركات المضادة في عملية الهدم النفسي والثقافي وفي كسب الانصار وترويض الشعور بالانتماء العربي ، وكان طبيعيا بعد ذلك ان تنتقل جهودها الى مرحلة اخرى من العمل ولاسيما انها هيأت لنفسها رأيا عاما اوربيا يقف خلف جهودها ويدعمها بنوع من الحماس المطلق المشبع بروح الاستعلاء والغطرسة ، وبدءً من منتصف القرن التاسع

٤٦ـ د. ذوقان قرقوط ، الماسونية العربية .

٤٧ـ ن . م ، ١٨ .

عشر سوف تشهد المرحلة جهودا كثيفة على مستويات متعددة وفي مجالات شتى انصبت جميعا على تغريب الانسان العربي تغريبا شاملا اجتماعيا وثقافيا • ويهمنا الاشارة هنا الى ان جهود التغريب هذه مورست في كل الوطن العربي سواء في الاراضي التي نجحت الدول الاوربية في السيطرة عليها او تلك التي نجحت ان تزرع فيها نفوذا مباشرا او غير مباشر وعلى العكس فأن تلك الاراضي التي بقيت بعيدة عن السيطرة المباشرة سوف تشهد جهودا اكثر كثافة لضمان مواقع قوية يمكن استخدامها وقت الحاجة الحقيقية وحيث الحسم •

التغريب الاجتماعي

استخدم الاستعمار في مجال التغريب الاجتماعي اسلوبين انصب الاول على تشجيع هجرة الجاليات الاجنبية الى الوطن العربي ، بينما اتجه الثاني الى سلخ التجمعات القومية والطوائف الدينية من المجتمع العربي واحاطتها بسياج من العزلة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحاقها بنفوذ القوة المحتلة وقد كان لكل من الاسلوبين دوره في تحقيق الغربة الاجتماعية في المجتمع العربي واضعاف بنائه الاجتماعي والنفسي والثقافي •

اولا : الجاليات الاجنبية :

دفعت ضرورات تعزيز النفوذ الاستعماري وتأمين مستقبل المصالح الاوربية في الوطن العربي ، بالحكومات الاستعمارية نحو تشجيع الهجرة الاوربية الى اقطار الوطن العربي ، وتكوين الجاليات الاجنبية ، ومنحها التسهيلات اللازمة اجتماعيا في مجالات الاقتصاد والسياسة ، ولم يكن الموقف الاستعماري منحازا لطرف معين من هذه الجاليات على اساس قومي او ديني ، فالمهم في نظر الدول الاستعمارية هو ليس نوعية هذه الجاليات انما المهم كيفية اقصاء السكان الاصليين وجعل الجاليات الاوربية قائدة في الاماكن التي ستستقر بها ، وتمكينها من دورها التخريبي ، غير ان هذا لايعني ان

المساواة بين الجاليات الاجنبية كـ ن قاعدة مطلقة فقد كانت هناك استثناءات في نوع الامتيازات تفرضها طبيعة مصالح الدولة المسيطرة ، فمـع ان كلا مـن فرنسا وانكلترا شجعتا هجرة الجاليات الاجنبية الى الوطن العربي ، غـير ان الفرنسيين اعطوا اهمية اكبر للمعمرين الفرنسيين في اقطار المغرب العربي ، ولاسيما ان فرنسا كانت تنطلق من نظرية سياسية تعتمد اساسا على ان تعد كل ارض يمتد اليها النفوذ الفرنسي هي فرنسية ، من هنا اصبح ترجيح العنصر الفرنسي من بين الجاليات الاجنبية امرا مهما ، أما انكلترا فأنها كانت اقل تزمتا فقد شجعت هجرة الاوربيين جميعا الى مصر وشجعت هجرتهم اضافة الى الهنود الى عدن والمحميات ، واضافة لكل هؤلاء شجعت هجرة الايرانيين الى سواحل الخليج العربي واخذت على عاتقها جلب النساطرة (تيارية وغيرهم) من الاناضول واسكنتهم في العراق واستخدمتهم في مهامها الخاصة وخدماتها العسكرية ، ولم تكن الجاليات الاجنبية قليلة بل على العكس انها كانت في تزايد مستمر ربما بلغ ذروته في الحرب العالمية الاولى ، ففي مصر مثلا كان هناك (٨٨٦ ر ٩٠) اجنبيا ، من جنسيات متعددة انكليزية وفرنسية ومالطية ويونانية ونمساوية وروسية وفي سنة ١٩١٧ كان هناك ما بين ٢٦٠ ألف الى ٣٢٢ ألف اجنبي متوزعين في المدن المصرية ، وكانت الاسكندرية ابرز مراكز تجمع الاوربيين حيث كان فيها ثلث الاجانب ، وكان ٢٠٪ منهم في بور سعيـد والاسماعيلية و ١٤٪ في السويس و٩٪ في القاهرة ، وقد روعي في توزيعهم السيطرة على الموانيء والمدن الرئيسية وعقد المواصلات[٤٨] .

٤٨ـ قرطوط : د. ذوقان، تطور الفكرة العربية فيمصر (بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢) ص١٢١ ، ١٣٢ .

عيسى : صلاح ، الثورة العربية (بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢) ص١٧١ .

الفقي : د . حسن ، التأريخ الثقافي للتعليم في مصر (مصر ـ دار المعارف ١٩٧٤) ص ١٤١ .

أما في اليمن فقد تضاعفت نفوس عدن وحدها بشكل قياسي في مرحلة الاحتلال ، فحتى سنة ١٨٣٩ (قبل الاحتلال) كانت نفوسها ٦٠٠٠ نسمة ازدادت بعد الاحتلال الى (١٥) ألف نسمة سنة ١٨٤٢ ، و(٢١) ألف نسمة سنة ١٨٥٦ و١٣٨ر٤٤١ ألف نسمة سنة ١٩٥٥ وكان توزيعهم القومي على النحو التالي :

(١٠٦ر٤٠٠) عربي ١٥ر٨٠٠ هندي ١٠ر٦٠٠ الاف من الصوماليين و(٤ر٤٠٠) من الاوربيين و٨٠٠ من اليهود أي ان الاجانب شكلوا ثلث السكان وقد منحتهم السلطات البريطانية كل الحقوق والامتيازات وجعلت قانون الهجرة لصالحهم ، فأعطتهم حق الانتخابات والترشيح في المجلس التشريعي والاشتراك في الوزارة وكان لهم موقف معاد للحركة الوطنية في اليمن ، فعندما زار وزير المستعمرات البريطانية عدن سنة ١٩٦١ تظاهر سكانها معلنين مطالبهم الوطنية والقومية، في حين قابلته الجالية الهندية بالترحيب[٤٩] .

هكذا نجحت السلطات الاستعمارية من خلال تشجيع الهجرة الاوربية وهجرة الجاليات الاخرى من مناطق احتلالها في آسيا وافريقيا الى الوطن العربي في ايجاد بؤر اجتماعية تنسق معها وتعمل على تنفيذ سياسة الهدم القومي في البناء الاجتماعي واحداث تخلخل في التركيب القومي للمجتمع يساعد على خلق مراكز قوى في السياسة الداخلية ، لقد اوجدت سلطات الاحتلال اوضاعاً اجتماعية واقتصادية وثقافية لهذه الجاليات جعلتها تتخذ مواقف معادية للسكان ، واضافة الى نزعة الاستعلاء التقليدية التي كانت تحملها ، لذلك لم تتوان هذه الجاليات عن اداء دور جماعي مضاد للحركة القومية في اللحظات التي شعرت ان هذه الحركة على وشك تحقيق انتصار يهدد سلطة الاحتلال ، ويهدد امتيازاتها ووجودها هي ، لقد انطلقت هذه الجاليات في مواقفها من تناقضها الحضاري مع العرب الا انها نجحت

٤٩ـ طه : د. جاد ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن (دار الفكر العربي القاهرة ـ ١٩٦٩) ص٣٥٩ ، ٣٨٥ .

ان تعطي هذا التناقض امتداداته الحياتية ، وفي معظم الاحيان تتجت مواقفها بسبب مصالحها الاقتصادية التي خلقتها لتكون مبررا اضافيا يدفعها للتمسك بالاراضي المحتلة .فالمعمورون الاوربيون مارسوا دورا كبيرا في اسناد الاحتلال الفرنسي للجزائر . وعندما اذ عنت فرنسا للثورة قاموا بأنقلاب عسكري مضاد للسلطة الفرنسية ثم مارسوا سياسة الارض المحروقة في الجزائر ، مثل هذا الموقف أداه الاجانب في مصر وفي حادثة معاصرة لنا (العدوان الثلاثي) وكان دورهم تخريبا في بور سعيد والقناة وحتى القاهرة ، كذلك في اليمن حيث وقفوا موقفا عدائيا صريحا من القضية الوطنية باستثناء الهنود المسلمين الذين شعروا انهم اقرب الى السكان الوطنيين منهم الى المستعمر المسيحي بحكم انتمائهم الى الاسلام • وفي العراق لعبت الجالية الايرانية دوراً بارزاً لخدمة النظام الايراني اخر اطواره دورها قبيل العدوان الايرانـي في ٤ ايلول ١٩٨٠ وخلالـه •

ثانيـا : الاقليـات القومية والطوائف الدينيـة :

استخدم الاستعمار موضوع الاقليات القوميـة والطوائف الدينيـة في الوطن العربي استخداما واسعا لاغراضه ، وقد ساعدته في ذلك ظروف متعددة في مقدمتها ، ان الوطن العربي كان موطن الحضارة وميدانها ووطن الافكار والعقائد الدينية . ومهبط الاديان السماوية حيث ختمها الاسلام الذي احتوي جسيع المبادىء والقيم التي نادى بها الانبياء والمصلحين والرسل . فهو في ذلك يمثل اعلى مرحلة في مسار الاديان جميعا وهو الى جانب ذلك صورة رائعة في الربط بين ارادة الله وارداة الانسان • وقد ادى التسامح الديني عند العرب المسلمين الى ان يحتفظ الكثير من العرب ممن كانوا يعتنقون الاديان السابقة بدياناتهم يضاف الى هذا انسانية الامة العربية واتاحتها الفرصة للمضطهدين في العالم ان يعيشوا في كنفها دونما اضطهاد او ضغوط . وكان لجوء الاستعمار الى هذا الاستخدام نابعاً من هدفه الخاص باضعاف البنية العامة لسكان الوطن العربي ، فالمعروف عن وطننا ان واحدة من ابرز مزاياه الستراتيجية اطلاقا درجة

النقاء القومي والفكري الذي يمتاز بها سكانه، ومثل هذه المزية لاتتوفر للعديد من الامم الاخرى في العالم، ومن هنا اكتسبت الوحدة العربية واحدا من ابعاد خطورتها على المصالح الاستعمارية . ازاء هذا الوضع مارس الاستعمار سياسة تحريضية اعتمدت اثارة الاوضاع النفسية وتحويل الثقافات الدينية الخاصة بالطوائف الى ثقافة قومية ، وبلورة كيان ثقافي للاقليات القوميــة والدينيــة وتوجيهها صوب اضعاف البناء العام للمجتمع العربي .

ففي المغرب العربي لجأت السلطات الفرنسية الى اصطناع مسألة البربر وسيلة لاضعاف البناء القومي للمغرب العربي فقد دعا المقيم العام الفرنسي (لوسيان سان) الى فصل البربر عن العرب وادماجهم في البيئة الفرنسية واحياء اللغة البربرية بحروف لاتينية[٥٠] ، وقام المستشرق جود فروى دي مونبين مستشار التعليم في مراكش بوضع مشروع مفصل بهذا الخصـــوص وركـــز المبشرون نشاطهم في مناطق البربر فكان لهم ١٣٨ مركزا تبشيريا وتعليميا حتى سنة ١٩٧١[٥١] ، وفي عام ١٩١٤ اصدرت ما عرف بالظهير البربري ، تم بموجبه اخراج البربر من دائرة القضاء الشرعي في الامور المدنية وجعل مجلس الجماعة او القبيلة مختصا بنظر تلك الشؤون[٥٢] ، وفي ١٩٣٠ اصدرت الظهير البربري الثاني تضمن المواد التالية :

مادة ـ١ـ جميع القضايا التي تحدث في القبائل البربرية والتي هي من اختصاص القواد في التشريع الاسلامي يرجع الفصل فيها بعد الان الى رؤساء القبائل .

مادة ـ٢ـ تخضع المعاملات المدنية والتجارية والعقارية وما يتعلق بالاملاك المنقولة للتشريع الخاص المسمى بالعادات القبليــة .

مادة ـ٣ـ انشاء محاكم عرفية استثنائية للبربر[٥٣] .

٥٠ـ عقاد :د. صلاح ، المغرب العربي (مصر ، مكتبة الانجلو المصرية) ص٣٠٦ .
٥١ـ ن . م ، ص٣٠٧ .
٥٢ـ ن . م ص٣٠٦ ، شارل اندريه جوليان ، ١٦٩ .
٥٣ ـ حقي : احسان ، المغرب في العربي (دار اليقظة العربية) ص ١٩٦٨ .

وواضح جدا ان الهدف من هذا الظهير هو عزل البربر عن المجتمع عامة وتحويلهم الى كيانات قبلية تتمتع باستقلال ذاتي فيما بينها واستقلال عام عن المجتمع ، وجعل ارتباطها مع السلطة الاستعمارية وايجاد الحساسيات بينها وبين السكان .

وقد كان الرأي الفرنسي ان تكون المدارس البربرية خلايا للسياسة الفرنسية وادوات دعاية بدل ان تكون مراكز تربوية[٥٤] . ودعا ماسينيون الى استخدام العامية في المغرب واحياء البربرية مقابل اللغة العربية لاضعافها[٥٥] ، ولازال الاهتمام بهذا الموضوع قائما في السياسة الفرنسية وفي اوساط المثقفين الفرنسيين .

وفي العراق استخدمت الدول الاستعمارية الاقليات فقد استخدم الانكليز قبائل التيارية الذين نزحوا الى العراق من ولاية حيكاري في تركيا قبل قيام الحرب العالمية الاولى وعملوا تحت امرتهم طوال انتدابهم على العراق موظفين في دوائر الاحتلال للمطارات وقوات عسكرية (الليفي) وادوا دورا في ضرب الحركة الوطنية[٥٦] ، كما استخدمت قضية الاكراد على نطاق واسع في اوائل ايام تأسيس الدولة العراقية ورقة ضغط للمساومة على مصالحهما في العراق ، وشجع الفرنسيون اليزيديين في سنجار سنة ١٩٣٦ ضد حكومة ياسين الهاشمي بسبب دعمها لاستقلال سوريا وتشريعها قانون الدفاع الوطني[٥٧] ، وحيثما وجدت اقلية قومية أو طائفة دينية فأن الاستعمار نجح في استغلال

٥٤- لاندو : روم ، تأريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة نقولا زياد (دار الكتاب المغرب - ١٩٦٣) ص١٧٧ .

٥٥- التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٢٤٤ .

٥٦- محاضر جلسات مجلس الاعيان / سنة ١٩٣٣ ، الجلسة الثانية والعشرون في ١٩٧٣/٧/٦ ص ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ايضا محضر الاجتماع الاعتيادي التاسع الجلسة الخامسة ١٩٣٤/١/١٥ ص٢٢ .

٥٧- الخطاب : د. رجاء حسني ، تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره في الحركة الوطنية من ١٩٢١ الى ١٩٤٩ (الدار العربية للطباعة والنشر ١٩٧٩) . بغداد .

السياسة الخاطئة للعثمانيين فسلخها واحاطها بنشاطه الثقافي وكون لديها مقومات العزلة فلما تمت السيطرة استخدمها ضد الامة العربية ، ومن هذا المنطلق شجع قضية الافارقة في جنوب السودان واقطار المغرب العربي ايضا .

كما استخدمت الدول الاستعمارية الطوائف الدينية ايضا مستفيدة من الاخطاء العثمانية نفسها ونجحت من خلال بعثاتها التبشيرية او حمايتها لتلك الطوائف في تحويلها الى كيانات منغلقة تتطلع دوما الى خارج انتمائها التأريخي والقومي، وفي مقدمة هذه الاقليات كان لليهود دور بارز في التعامل مع الدول الاوربية فقد كانوا جواسيس السلطة البريطانية في عدن ، يقول المقيم السياسي الكابتن هينيس . « احسن من ينقلون الانباء الينا هم اليهود وقد وظفتهم معي سرا وخصوصا اليهود المقيمين في عدن وهم يعملون في خدمة الحكومة وقد اعطوني معلومات تضم حقائق مهمة .. وقد قمت بأستغلال فرصة وجودهم في اماكن متفرقة .. في صنعاء وقعطيه وتعز ولحج والمناطق المجاورة لعدن وقد كافأتهم بمبالغ تافهة »(٥٨) .

أما في مصر فدور اليهود في خدمة الاستعمار والصهيونية كان متقنا في انجاز عملية الاحتواء الثقافي لمصر ، بدأ اليهود دورهم بأحتكار تجارة الورق وادوات الطباعة وشكلوا لذلك شركات مثل (شندلر وايزاك وناكامولي) وعن طريق الورق وادوات الطباعة سيطروا على الصحافة واقتصروا في تسهيل الخدمات للصحف التي لاتقف مواقف معادية منهم او من السياسة الاستعمارية فعانت منهم الصحف الوطنية الامرين ولاسيما ذات الاتجاه الاسلامي او تلك التي ناصرت القضية الفلسطينية ، ثم احتكروا الاعلانات من خلال تشكيل شركة الاعلانات الشرقية التي كانت تصب فيها اعلانات الشركات والمتاجر والوكالات ودور السينما كافة وعن طريق الاعلانات كانوا يقررون مَنْ مِنَ

٥٨ــ د . جاد طه ، ص٣٥٣ نقلا عن الوثائق الهندية ، نيسان ١٨٤٥ .

الصحف تستمر ومن منها تتوقف[٥٩] ، ثم دخلوا قطاع السينما وسرعان ماسيطر مزراجي وايلي وريمي عليها واسس جوزيف موصيري شـركة جوزي فيلم التي اقامت وادارت عددا من دور السينما في القاهرة وغيرها من مدن مصـر وبهذا سيطر اليهود على الحركة الثقافية من خلال سيطرتهم علـى ادواتهـا ووسـائلها فنجحـوا في اشاعـة جو من التحلل الفكري والاخلاقي وابعدوا الرأي العام عن قضاياه الجوهرية[٦٠] .

كما استخدمت الحكومة البريطانية اليهود في العراق وكان التعاون بـين بريطانيا والمنظمة الصهيونية نشطا في هـذا المجال ومن خـلال الدور الواضح لليهـود في العراق في سنتـي ٣٥ ــ ١٩٣٦ ظهـرت التشكيـلات الاولـى للحزب الشيوعي العراقي وكان لهذه التشكيلات ضمن الطائفة اليهودية عامـة دوراً في اسناد انقـلاب بكر صـدقي سنـة ١٩٣٦[٦١] ، وفي المغرب العـربي شجع الاحتلال الفرنسي اليهود واحتضنهم ففي الجزائر مثلا منح القانـون الفرنسي لليهود حق الانتخاب بينما حرم العرب منه[٦٢] .

أما الطوائف المسيحية فـرغم ان الحمايـة عامـة وشاملـة علـى كل الطوائف غير ان ثمة مكانة للطائفة المارونية في لبنان تمتعت بها في ظل الحماية الفرنسية ثم فيما بعد في ظل الاحتلال الفرنسي .

ويمكننا ان نقرر ان الطوائف والاقليات الدينية والقومية كانت بفعل الالتزام الدولي لها تزداد ثروة وثقافة ونفوذا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فالحماية الاجنبية لم تكتف بمنحهـا امتيازات سياسية بل وفرت لابنائها

٥٩ــ رمضـان : د. عبدالعظيم ، صـراع الطبقات في مصـر ، ١٨٣٧ ــ ١٩٥٢ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٨) ص٤٨ .

٦٠ــ ن . م ، ص٥٠ .

٦١ ــ د . رجاء الخطاب ، تأسيس الجيش العراقي ، ١٨٤ .

٦٢ــ شارل اندري جوليان ، افريقيا الشمالية تسير ص٤٧ .

ايضا ، وهم وكلاء التجارة مع اوربا انذاك ، منافع تجارية ومالية لهذا ازداد مستواهم الثقافي واشتد شعورهم الطائفي وتوثقت صلاتهم بالغرب[٦٣] .

ان السياسة الاستعمارية التي نجحت في ان تخلق مناخا ينتزع سكان الاقليات القومية والطوائف الدينية من المحيط الاجتماعي العام الذي ينتظمون فيه ، نجحت ايضا في ان تحتوي تطلعاتهم واحساسهم بمشاكلهم اليومية حتى اعتقدوا ان التخلف الذي يعيشونه ليس ظاهرة عامة يعيشها العربي وانما هي ظاهرة خاصة ناشئة عن رفض المجتمع لهم لكونهم غرباء عنه اصلا ودينا ، فتناست العلاقات التأريخية ووحدة الانتماء القومي لكثير من الطوائف الدينية مع المسلمين العرب ، كما أنها هيأت لهم دورا اقتصاديا اوجد ارتباطا بين مصالحهم ومصالح الاحتلال وكان الناتج الطبيعي لهذه السياسة ان اوجدت في جسم المجتمع بؤراً تتطلع خارج انتمائها الطبيعي وتتخذ مواقف معادية للبناء الاجتماعي العام الذي تنتمي له .

التغريب الثقافي

اهتمت الدول الاستعمارية بالتعليم وحرصت اشد الحرص على ان يبقى تحت سيطرتها فقد تعلمت منذ حملات التبشير ان التعليم انجح وسيلة لبث الافكار الاوربية ولتطويع الفرد العربي على القبول بالمدنية المادية الاوربية، وانه اداة نافعة في تغيير العقائد وتفكيك الروابط الاجتماعية والقومية لذلك خططت له لا لكي يحقق الاهداف الانية للاستعمار وانما لكي يحقق الاهداف البعيدة ايضا التي تبقى الفرد تحت التأثير الاستعماري وان يبقى « هذا التأثير حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون يوما قادة في اوطانهم »[٦٤] .

٦٣ـ البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ص٥٨ .

٦٤ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٦٧ راى بن روز رئيس الجامعة الامريكية .

ومر التخطيط الاستعماري للثقافة والتعليم في اقطار الوطن العربي في مرحلتين :

الاولى ــ مرحلة التغلغل وهي التي شهدت نشاط الارساليات التبشيرية وهجرة الاجانب الى المدن العربية وتشكيلهم جاليات كبيرة، وفي هذه المرحلة كان هدف السياسة الاستعمارية ايجاد مدارس اجنبية دون التعرض للتعليم المحلي لان السلطة السياسية والادارية كانت بيد الدولـــة العثمانية •

الثانية ــ مرحلة السيطرة التي انتقلت بموجبها السياسة الاستعمارية مـــن مجرد ادارة مدارس المبشرين او الجاليات الاجنبية الى احتواء التعليم كلـــه •

المدارس الاجنبيـــة :

اعتمدت الدول الاستعمارية في مرحلة التغلغل على المدارس الاجنبية التـــي اقامتهـــا البعثـــات التبشيريـــة او تلك التـــي اقامتهـــا الجاليـــات الاجنبيـــة بسبب حصولهـــا علـــى حـــق فتـــح المـــدارس الخاصـــة بهـــا ، ففي مصـــر شجعت سلطات الاحتلال البريطانـــي المدارس الاجنبيـــة ، فبـــين سنتي ١٨٧٥ و ١٨٨٧ ارتفع عدد المدارس الاجنبية من ٩٣ مدرسة الى ١٩١ مدرسة وازدادت اعداد الطلبة فيها من ١٩١٦ طالبا الى ٢٢٧٦٤ طالبا ، وكانت هذه المدارس متنوعة منها مدارس انكليزيـــة وفرنسيـــة وايطالية وامريكيـــة حسب وجود الجاليات ، تتكشف خطورة هـــذه الحالة اذا عرفنـــا ان المدارس الوطنية في المرحلة ذاتها ما بين عامي ٧٥ ــ ٨٧ ارتفع من ٣٦ مدرسة الى ٤٠ مدرســـة وان عـــدد طلبتهـــا ازدادوا مـــن ٤٨٧٨ طالب الـــى ٥٥٠٠ طالب أي أن ٢٦٠ الى ٣٢٢ ألف اجنبي في مصر يمتلكون ١٩١ مدرسة بينما الشعب المصري اكله يمتلك ٤٠ مدرسة(٦٥) •

٦٥ــ د. حسن الفقي ، التأريخ الثقافي للتعليم ص٩٨ ، ١٢٩ •

أما في لبنان فقد كان للبعثات البروتستانتية الامريكية مدارس خاصة بلغ عدد طلابها سنة ١٨٩١ ، ٧١١٧ طالبا ، وكان عدد طلاب المدارس الاجنبية الاخرى مجتمعة ٧٨٨٣ طالبا ، أما في سنة ١٩٠٩ فكان عدد المدارس الامريكية ١٧٤ مدرسة[٦٦] ، واستمرت هذه الحالة حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، ففي سنة ٤٢ ــ ١٩٤٣ كان ٨٤٪ من المدارس فرنسية فمن مجموع ٣٢٦ مدرسة كان هناك ٢٧٣ مدرسة فرنسية تضم ٨٤٪ من الطلبة وكان عدد الطلبة اللبنانيين في المرحلة الابتدائية (١٢٦) ألف طالب موزعين على النحو التالي ، ١٧٪ في مدارس الحكومة و ، ٢٨٪ في المدارس الاجنبية ، ٥٥٪ في مدارس خاصة بالطوائف .

أما في المرحلة الثانوية فقد بلغ عدد الطلبة ١٨ ألفا كان توزيعهم : ٩٥٪ المدارس الاجنبية ٣٪ مدارس اهلية ، ٢٪ مدارس حكومية[٦٧] .

اما في العراق فقد كانت هناك ٦٤ مدرسة ابتدائية وثانوية ما بين مدارس اجنبية او مدارس طوائف لها اظمتها الخاصة ومناهجها وسياستها التعليمية[٦٨] .

احتواء التعليم :

عندما نجحت الدول الاوربية في الانتقال من مرحلة زرع النفوذ والحماية الى الاحتلال المباشر لجأت الى مايلي :

١ ــ الغاء التعليم الوطني كما حصل في اقطار المغرب العربي ومصر وبلاد الشام أو حرمان المدارس من الدعم بحيث تضمحل تدريجيا نتيجة عجزها عن تهيئة مستلزمات التعليم ، ففي مصر ومنذ بداية الاحتلال حتى صدور

٦٦ــ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٧٨ .

٦٧ــ جريدة اللواء (لبنانية) في ١٩٧٩/١١/٤ .

٦٨ــ الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ ، وزارة الداخلية ، (محل دنكور للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٣٦) .

دستور ۱۹۲۳ حارب الانجليز الاتجاهات الشعبية في التعليم جميعا، والغوا المجانية الغاء تاما ، وفرضوا مصروفات باهظة على التعليم ، وقد ظهرت نتائج هذه السياسة واضحة في انخفاض اعداد الطلبة ، ففي حين كان عدد طلبة المدارس العالية قبل الاحتلال (۲۰۰۰) طالب اصبح بعد الاحتلال (٤٥٠) طالبا وفي حين كان عدد طلبة كلية الطب وحدها قبل الاحتلال (۱۰۰) طالب اصبح عددهم بعد الاحتلال (۱۰) فقط[٦٩] .

وقد فعلت فرنسا الشيء نفسه في اقطار المغرب العربي يقول كوليز عن التعليم في تونس قبل الاحتلال « وجدنا انفسنا امام مجموعة زاهرة بديعة من المدارس كبيرة وصغيرة تعمل تحت ظل الاحياء الحضرية أو تحت خيام المداثر .»[٧٠]، أما بعد الاحتلال فقد مارست السلطة الفرنسية سيطرة ثقافية حاربت بموجبها التعليم القومي ويصف هذه الحالة اوجين كوميس في مجلس الشيوخ الفرنسي بقوله : « كانت الدروس العامة تنظم في جميع المساجد ... وكان التعليم في الجزائر .... اقل تقهقرا مما جعلته السلطة العامة الفرنسية »[٧١] . وعندما لاحظ الفرنسيون اتساع التعليم العربي في المغرب العربي اخضعوه الى الادارة السياسية وفرضوا عليه رقابة وحددوه في حدود اعداد موظفين للادارة فقط، وقدبرر استاذ التشريع الجزائري (لارشي) الفرنسي هذا العمل بقوله « لاسبيل انجح لفرنسا من التعليم الابتدائي لتخليص السكان المسلمين من الافكار المسبقة التي تحول بهم دون مدنيتنا ولرفع مستواهم الادبي والثقافي »[٧٢] .

٦٩ـ د . عبدالعظيم رمضان ، صراع الطبقات في مصر ، ص١٤٢ .

٧٠ـ الفاسي : علال ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (مطبعة الرسالة، القاهرة ، ط ـ ١ ، ١٩٤٨) ص٦٩ .

٧١ ـ عبد الحميد جلون : هذه مراكش (مطبعة الرسالة ـ القاهرة ، ١٩٤٩) ص١٤١ .

٧٢ـ شارل أندري جوليان . افريقيا الشمالية تسير ، ص٥٣ .

٢ ـ الاكتفاء بحدود معينة من التعليم (الابتدائي) والمتوسط وعدم نشر التعليم العالي وحصره ، ان وجد ، بالعلوم الانسانية والنظرية[٧٣] ، وعدم تشجيع الدراسات العليا ، ومثل هذه السياسة نجحت في ابقاء التعليم بعيدا عن تأمين مستلزمات التنمية والتقدم وحتى في حالة توافره فأن اتجاهاته لاتخدم الطموح المطلوب لتجاوز التخلف ، هذا اضافة الى تحديد فرصه واشباعه بالموضوعات العلمية والثقافية الاجنبية التي تشيع مناخا من التغريب القومي وتهيء نشوء ولاء للثقافة الاجنبية .

٣ ـ محاربة اللغة العربية وتشجيع تدريس اللغات الاجنبية كما فعلت فرنسا في تونس والجزائر ومراكش[٧٤] ، وفي سوريا ولبنان[٧٥] وقد فعل الانكليز الشيء نفسه في مصر عندما عمموا الانكليزية على حساب اللغة العربية ففي سنة ١٨٩١ جعلوها لغة لتدريس الجغرافية وعلم الاشياء في المدارس الابتدائية . وفي سنة ١٨٩٢ جعلوها لغة التأريخ والجغرافية والطبيعيات في المدارس الثانوية وفي سنة ١٨٩٨ عمموها على كليات الطب والهندسة والحقوق والمعلمين[٧٦] ، وكانت نسب تدريس اللغة العربية الى الاجنبية متساوية في الابتدائية بينما كان التفوق لصالح الاجنبية في الثانوي ، وفعلوا الشيء نفسه في عدن[٧٧] ، أما في العراق فعندما احتل الانكليز البصرة وضعوا التعليم تحت ادارة (فانيس) مدير مدرسة الامريكان في البصرة ، وبعد ان تم لهم احتلال العراق واسسوا دائرة المعارف فقد عينوا الميجر (بومن) ويصف السيد محمد عبد

٧٣ـ عبدالمجيد بن جلود . ص١٤٤ . علال الفاسي . ص٧٠ .
٧٤ـ ن . م . ، ص١٤١ .
٧٥ـ جريدة اللواء ، في ١٩٧٩/١١/٤ .
٧٦ـ د . حسن الفقي . التأريخ الثقافي للتعليم في مصر ، ص١٢٢ ، ص ١٢٣ .
٧٧ـ فهمي : د. اميل . التعليم الحديث ، دراسة وثائقية (مكتبة الانجلوا المصرية ١٩٧٧) ص١٥١ ، (بتصرف) .

الحسين سياسته في التعليم بـ« أعوجاج الخطة التـي تبعهـا وسـوء النظام الذي وضعه والنتائج العقيمة التي تولدت عنها »[٧٨] ، وقد فرضوا تدريس اللغة الانكليزية في السنة الاولى بمعدل (٦) ساعات للصف الاول الابتدائي (٧) للثاني (٩) للثالث (١١) للرابع[٧٩] .

ولم يقتصـر الامر على ما ذكرنا وانما ظهرت الدعوة الى العامية وأسهم فيها مثقفو القوى الاستعماريـة والمثقفون المحليون المرتبطون بالقوى المحتلة ، فقد قاد (ماسنيون) هذه الدعوة وانتشرت في المغرب ومصر وسوريا ولبنان ، ووضع الاب رافاييل نخله كتابا في قواعد اللغة اللبنانية والسورية كما وضع انيس فريحة كتابه (نحـو عربيـة ميّسره) دعا فيه الى اتخاذ العاميـة لغـة مكتوبة بالحروف اللاتينية[٨٠] ، وقاد الانكليز في مصر حملة الهجوم علـى الفصيحـة ، وعينوا المهندس البريطاني وليـم ويلكوكس رئيسـا لتحـرير مجلة الازهر واعلن عن فسحه المجال للكتابة بالعامية ، كما تطوع سلامة موسى لقيادة الحملة على الفصيحة ثم تبعه عبدالعزيز فهمي واخيرا ظهر سعيد عقل في لبنان يدعو للهدف الاستعماري نفسه[٨١] .

٧٨ـ عبدالحسين : محمد . المعارف في العراق ، (المكتبـة العصريـة بغداد ١٩٢٢) ص١١ ــ ١٢ . ويعد كتابه اول كتاب صدر عن التعليم في العراق حسب ماهو مكشوف من بحوث ووثائق ، والنسخة التي املكها مصورة عن اصل عثر عليه الاستاذ شاكر الامين في القاهرة يحمل ختم المكتبة العامة في الناصريـة عدد ٣٠٧ .

٧٩ـ ن . م ، ص٣٣ .

٨٠ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ٢٢٤

٨١ ــ جريدة الدستور (الاردن) العدد ٤٣٩٩ في ١٩٧٩\١١/٩ الصفحة ٧ . سميح ابو مقلى . الفصحى والعامية ، مجلة الهلال (مطبعة الهلال ، القاهرة عدد شباط ١٩٠٢) الجندي : انور . تطور الصحافة في مصـر (مطبعة الرسالة ١٩٧٢) ص٢١٨ .

تأثير التعليم الاجنبي :

لم تذهب الامال التي عقدها الاستعماريون على التعليم والمدارس الاجنبية للبعثات التبشيرية سدى ، فقد نجحت في ايجاد فئات من المتعلمين تفاوتت في مواقفها غير إن القاسم المشترك لها جميعا انها كانت في مواقفها تنطلق من النفسية والذهنية التي اكسبها اياها التعليم ، حتى تلك التي مارست العمل السياسي الثقافي ، واحتلت مواقع في الحركة السياسية أو الثقافية كانت في الواقع تنطلق من الموقع الذي حدد لها من قبل ، والواقع ان تدريس اللغات الاوربية واحتواء المناهج التعليمية الانسانية وتقديمها باللغات الاجنبية ايضا اوجد طبقة مثقفة على ما اتيح لها من قشور المدنية الاوربية ، وصحيح انها لم تتخل عن الاسلام مثلا كما كانت ترغب بذلك الدول الاستعمارية لكنها اصبحت تعتنق اسلاما مادى النزعة ، وتنظر الى الاصلاح نظرة تنطلق من وجهة نظر اوربية فالثقافة الاوربية والتعليم الاجنبي ابعدا الانسان عن اصوله الحضارية وقطعا اتصاله بخلفيته التأريخية ، لقد خرجت اجيالا ممن يتقنون لغة الغرب ويحفظون تأريخه ويعتنقون حضارته ويهملون انتمائهم الوطني والقومي والتأريخي ، وليس ادق تعبيرا عن هذه الوضعية من الصورة التالية عن تأثير التعليم الاجنبي في مصر « وكم غريبا أن تجد في المنزل الواحد الام ذات ثقافة امريكية والاب ذا ثقافة عربية مصرية والابنة ذات ثقافة فرنسية والابن ذا ثقافة انكليزية ولكل منهم تفكيره الخاص واتجاهه الخاص .. لقد اصبح التعليم الاجنبي السر الاول في هذه الفرقة التي نحس بها في كل شيء »[٨٢] .

كما نجحت الثقافة الغربية ايضا في ان تفصل ارتباط المواطن بجوهر تكونه الحضاري وفهمه لتأريخه فأبعدته عن ادراك صيغة التكون الجديد التي يجب ان تمارسها امة ناهضة، وجعلته مهزوما امام الحضارة الاوربية منبهرا بها، وتدريجياً انزلق هذا النوع من المواطنين في احضان التربية الاجنبية الى الحد

٨٢ـ ذوقان قرقوط . تطور الفكرة العربية في مصر ، ص١٤٦ .

الذي تطوع للدعوة بالتعليم في المناهج المدرسية باللغة الاجنبية[٨٣] ، او انبري للاساءة الى الدور الحضاري للعرب ، ففي حين دأب الفلاسفة المحدثون في اوربا على تسمية الفلسفة الاوربية التي سبقتهم بالرشدية نجد فرح انطون في كتابه عن ابن رشد يدعي ان الاسلام قضى على الروح الفلسفية[٨٤] ، وظهر مفكرون تعاونوا في العراق ومصر والشام والمغرب مع قوات الاحتلال في تكييف التربية في الاقطار العربية ، ففي مصر استخدم (دنلوب) مستشار المعارف البريطاني ادواته من ذلك الجيل المهزوم الذي فقد وضوح الرؤية القومية امثال عمر الاسكندري وسليم حسن ممن قبلوا كتابة التأريخ تحت اشراف الميجر أ٠ج٠ سفرج وكان من ابرز الامور التي ركز عليها الكتاب الجديد تعزيز موقع الاحتلال البريطاني لا بكونه احتلالا ولكن بكونه عملية انقاذ « انكلترا لم تقصد بقاءها بمصر امدا طويلا ، بل كانت على العكس من ذلك عازمة على الجلاء عنها بعد ان ترسخ اقدام الاصلاح فيها وتخرج من الازمة التي كانت سببا في نزول الجيش البريطاني للديار المصرية ، غير انه حدثت امور ومشاكل عاقت تقدم مصر على الوجه الذي تريده انكلترا فاضطرت للبقاء فيها الى اليوم »[٨٥] ، وفي السياق نفسه وضع أحمد عوض كتابه (نابليون بونابرت وفتح مصر الحديث) سخر فيه من الشعب المصري واظهر انبهار المثقفين امام الحضارة الاوربية وتأليههم لها واعجابهم بالغزاة الفرنسيين ، وكأنه لم يقرأ كتاب الجبرتي المؤرخ العربي الذي يصف الحملة الفرنسية بأنها بدء « انعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وحصول التدمير وعموم الخراب » وكانت مآخذه عليها انها سلخت المسيحيين المصريين ودربتهم واستخدمتهم جباة للاموال وافسدت المجتمع[٨٦] ، كذلك فعل نجيب مخلوف في كتابه « نوبار باشا وما تم

٨٣- ذوقان قرقوط ، تطور الفكرة العربية في مصر ، ص٢٢٨ .

٨٤- البرت حوراني ص١٨٣ .

٨٥- صلاح عيسى ، ص٣٤ - نص مقتبس من كتاب التأريخ للمراحل الثانوية والاعدادية .

٨٦- البرت حوراني ، ص٧٢ .

على يده » حيث حول خيانات نوبار الى مآثر وطنيـة وثورة عرابـي الـى خيانـة[87] .

لقد احدثت السياسة الاستعمارية في مجال التعليم نتائجها على المستوى الاجتماعي بشكليه التقليدي والمبتكر .

فعلى المستوى التقليدي ، أدت السياسة التعليمية الى تضييق نطـاق التعليم في حدود ضيقة جداً لتقتصر على ابناء الطبقات الموسـرة مـن سكان المدن ، وابناء المشايخ ، وحتى فرص التعليم هذه لم تكن جدية تأخذ بنظر الاعتبار الحاجات الطبيعية للبلاد اوتسهم في خلق طبقة متنورة وكان هذا الهدف واضحا في ذهن السياسة الاستعمارية[88] ، اذ اقتصرت على الدراسات الانسانية واللغات ، لذلك كان الطابع العام لجيل المثقفين في ظل الاستعمار طابعا وظيفيا ليست له علاقة بتنميـة البلد أو تطوره ، كما تحددت مستويات الدراسة بالشهادة الجامعية في بعض الاقطار ، واقتصرت على الثانوي في آخرى ، وحتى عند ظهورها كانت على نطاق ضيق وفي السياق السابق للتعليم نفسه . كما أدت السياسة التعليمية الى اضعاف اللغة العربية والابتعاد بهـا عن اصولها واشاعت بدلا منها اللهجات العاميـة .

أما على المستوى الاستثنائي ، فالتعليم الاجنبي أدى الى رجحان اللغات الاوربية على العربية فسهل تغلغل الثقافـة الاوربيـة الماديـة والعلمانيـة المجردة المشبوهة وساعد على التفكك الاجتماعي والقومي ، واضعاف الشعور المشترك بالمسؤولية الوطنية والقومية ، والواقع ان السياسة التعليمية الاوربية في الوطن العربي كانت من الدقة بحيث اثرت حتى في اولئك الذين اعتقـدوا انهم مطالبون بتحسس قضاياهم الوطنية ، فأتخذوا مواقف نابعة مـن تأثرهم

٨٧ـ صلاح عيسى ، ص ٣٥ .

٨٨ـ رزق : د. يونان لبيب ، ايدلوجية الوحدة بين مصر والسودان ، ص٦٤ تحذير الحاكم البريطاني لمديرية الغزال للجهات البريطانية قبل احـداث ١٩٢٤ .

بالحضارة الاوربية ذلك التأثر القائم علـى الانبهـار والاحسـاس بالنقص والانهـزام امامهـا ، بل ان ظاهـرة الانطـلاق مـن المنـاخ الثقافي للتعليم الاجنبي انسحبت على مصلحي ما قبل الحرب الاولى ولعل موقف جريدة الاهرام المصرية من البطل أحمد عرابي عند عودته الى مصر واتهامها اياه بالخيانة صورة من صـور الاعتدال أو (الترويض) التي بدأت تساق اليها الحركات الاصلاحية ، واستمر هذا التأثير فظهر في الاحزاب التـي ظهرت في مرحلة ما بعد الحرب وتشكيل الانظمة المحلية (التي سميت بالوطنية يومها) فقد انقطعت صلتها بالامة نهائيا ولم تتضمن برامجها السياسية اية اشارة الى الامة العربية والوحدة العربية بل على العكس راحت مغرقة في المشاكل القطريـة التي اوجدتها التجزئة بل وثبتتها ودافعت عنها ، وراحت تبشـر بالديمقراطية والدساتير الحرة ، والدول العظمى والمتمدنـة أي عمليا انها انطلقت من المناخ الثقافي الذي اعده لها الاستعمار ووقفت من قضايا الامة في الموقع الذي حدده لها .

الفصـــل الثالث

الامة العربية وتحديات القرن العشرين

التنسيق الاوربي وترتيب الاوضـاع

انتقلت الدول الاوربية في آواخر القرن التاسع عشر الى السيطرة المباشرة على الاقطار العربية • وقد بلغت هذه المرحلة قمتها في احتلال بريطانية مصر ١٨٨٢ الـذي ادى الى اطـلاق يـد فرنسـا في المغـرب العربـي واكمـل الحصـار البحري حول الـوطن العربي فمكن بريطانيا وفرنسـا من التفاهم على وضع الاراضي العربية المطلة على البحر الاحمر والبحر العربي والخليج العربي ، ولم يبق خارج هذه السيطرة الا العراق وبلاد الشام وداخل الجزيرة العربية ، حتى هذا الوقت كانت الخطوط العامة للتحالف في اوربا قد بدأت تتضح لكنها لم تاخذ صيغة الحسم ، وكانت الصهيونية واحدة من القوى التي بدأت تطمح ان يكون لها دور في التحالفات ولاشك في انها كانت ذات علاقات مع كل اطراف المعسكر الاستعماري الا انها لم تكن قد استقرت في تحالف معين ، وحتى مسألـة اتخاذ فلسطين وطنا قوميا للصهاينة لم تأخذ صيغة قطعية بالنسبة الى العلاقات الدولية وان كانت بالنسبة الى المؤسسـة الصهيونية والحركة الماسونية قد اصبحت هدفا وحيداً ، الا ان هذا لم يكن قد اصبح هدفاً للسياسة البريطانية بعد ولا لغيرها علما بأن نشاط المحفل الماسوني «شرق انكلترا الاعظم» اتخذ له اهدافا ثلاثة تمهد للحركة الصهيونية منذ١٧١٧ تنحصـر في :

١ ـ المحافظة على اليهودية •

٢ ـ محاربـة الاديـان •

٣ ـ بـث روح الالحـاد •

وقد تحمس الكثير من الساسة الانكليز لتحقيق اهداف المحفل وعندما احتل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ أسسو محفل القديس يوحنا[١] .

كذلك كان وضع محفل (الشرق الفرنسي الاكبر) منذ سنة ١٧٧٣م الذي نجح من خلال حملة نابليون على مصر ان يؤسس محفل ايزيس ، حتى أن نابليون عند زحفه الى فلسطين من مصر وجه نداء استهله بقوله : « الي الي يايهود العالم لادخل بكم اورشليم ، الي الي ياورثة فلسطين الشرعيين »[٢] .

غير ان هذا كله مازال بعيدا عن ان يصبح سياسة خاصة لاحدى الدول فحتى آواخر القرن التاسع عشر كان د . هرتزل يتنقل في علاقاته ما بين المانيا وانكلترا وايطاليا وروسيا[٣]،دون ان يحصل على ما يطمئنه حقيقة أو السبب كما اسلفنا عدم وصول العلاقات الدولية الى درجة الحسم فالمانيا التي هجرها هرتزل لم تجد نفسها قادرة على ان تعده بشيء وهي الصديقة للدولة العثمانية حيث مصالحها ، لذلك كان تقدير الامبراطور الالماني (ولهلم الثاني) ان مضي المانيا في تأييد الحركة الصهيونية يغضب السلطان (عبدالحميد الثاني) وينسف جهود المانيا التي بذلتها من ١٨٨٣م لغزو الدولة العثمانية اقتصاديا وسياسيا وثقافيا[٤] ، ولاسيما ان الامبراطور ادرك مدى حرص السلطان العثماني على ان لايسمح بأي نشاط من شأنه تحقيق اهداف الصهيونية في فلسطين ، وقد عرف هرتزل هذا الشيء نفسه عند مقابلته السلطان ، وليس مستبعدا أن الحركة الماسونية اتجهت الى كسب كبار الضباط العثمانيين ولاسيما اولئك العاملون في الولايات العثمانية الاوربية والظاهر ان جماعة الاتحاد والترقي

---

١ ــ د . محمد علي الزعبي ، حقيقة الماسونية ص٨٩ .
٢ ــ ن . م ، ص٩٠ .
٣ ــ الخولي : د . حسن صبري . سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين (مصر دار المعارف ١٩٧٣) المجلد الاول ، ص٧٧ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠١ .
٤ ــ ن . م ، ص٧٩ .

كانوا على تفاهم مع الحركة الماسونية والصهيونية العالمية ، فقد ورد في رسالة السلطان عبدالحميد الثاني الى شيخه الشيخ محمود ابو الشامات في دمشق ما نصه ... « اني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة بأسم جون تورك وتهديدهم اضطررت واجبرت على ترك الخلافة ، ان هؤلاء الاتحاديين قد اصروا علي بأن اصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الارض المقدسة (فلسطين) ورغم اصرارهم فلم اقبل بصورة قطعية هذا التكليف واخيرا وعدوا بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية واجبتهم الجواب القطعي الآتي انكم لو دفعتهم ملء الدنيا ذهبا فضلا عن المئة والخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا فلن اقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي .. وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وابلغوني انهم سيبعدوني الى سلانيك »[٥]، ومثل هذا التوجه كان يجري في بريطانيا من خلال اللورد كرومر الذي تمخض عن ايفاد بعثة لدراسة توطين اليهود في سيناء وتأمين ايصال مياه النيل لها ، وكان معظم اعضاء اللجنة من اليهود الصهاينة[٦] .

يعني هذا عمليا ان الدول الاوربية والمنظمات العالمية التي تعاونت معها وصلت في اواخر القرن التاسع عشر الى التنسيق ونجحت في رسم مواقف اتباعها وانصارها في الداخل ، وهذا شيء طبيعي فهذه المرحلة كانت تشهد تصاعد حدة التناقضات الداخلية في الدول الاوربية نفسها ، وهذا يعني ان العرب انذاك اصبحوا امام خصوم خارجيين يمتلكون القوة يحومون حول الاراضي العربية وخصوم داخليين يهدمون البناء الروحي والنفسي للامة ويسهلون للخصوم الخارجيين فرص الانقضاض وانتزاع المواقع ، اضافة الى

---

٥ – جريدة الشرق الاوسط (لندن) العدد ٣٥٠ الثلاثاء ١٩٧٩/٨/٢١ ص١١ – نص رسالة السلطان عبدالحميد باللغة التركية وترجمتها الى العربية بقلم الاستاذ محمد سليم شرباتي من السيد عبدالرحيم ابو شامات ابن الشيخ ابو شامات سنة ١٩٥٣ .

٦ – د. حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية اتجاه فلسطين . جـ١ ، ص٨٦ ، ٨٧ .

دور التخلف الاجتماعي العام الضارب في الامة العربية ففي ذات الوقت الذي كانت خطط الدول الاستعمارية تنسق لاقتسام السيطرة على الاراضي العربية كانت الصهيونية العالمية تحرك توابعها وترمي بثقلها للسيطرة على فلسطين وكان الاتحاديون يذيقون العرب الامرين ويقصونهم بسرعة من مراكز الادارة ويشردونهم في الولايات بعيدا عن وطنهم ويعدمون الاحرار في بلاد الشام ليفقدوا حركة الوعي العربي قيادتها التي تقودها في الصمود امام الغزو الصهيوني مما يسهل للصهاينة الانفراد بجماهير غير واعية تفتقد الى القيادة .

لجنة كامبل بنرمان

شهدت نهاية القرن التاسع عشر عملية تغريب واحتواء واسعة النطاق شملت الوطن العربي كله تهيأت لها ادوات كثيرة للتنفيذ شملت جهود الدول الاستعمارية والمنظمات المرتبطة بها ، وكان نضج العملية قد تم في وقت بدأ فيه واضحا ان العالم ينقسم على معسكرين ، اضافة الى عوامل اخرى ، شكلت ضغطا نحو تنسيق الجهود بين الاطراف المختلفة ، لقد كانت بريطانيا اكثر من غيرها حظا في التغلغل وزرع النفوذ وكسب الحلفاء في الوطن العربي وخارجه ، لذلك سارعت الى ترتيب نشاطاتها لاختيار الصيغة التي ستتصرف وفقا لها في عملية تصفية الدولة العثمانية وادارة الاراضي الجديدة وقطف ثمار جهود المبشرين والمنظمات ورجال الاستعمار التي بذلوها طوال قرنين من الزمن لاضعاف الامة العربية وفرض الانكفاء عليها وتعميم الحضارة الاوربية .

بدأ التفكير الحقيقي بتطبيق المخطط الاستعماري في مستهل القرن العشرين وبالذات في ١٩٠٧ حيث بدأ الاعداد لتنفيذه وقد قطع مرحلتين مهمتين الى ان نفذ ،هما وعد بلفور ونظام الانتداب ... جوهر هذا المخطط قامت بوضعه لجنة عرفت في التأريخ السياسي بأسم (كامبل بنرمان) وهو اسم رئيس حزب الاحرار البريطاني ورئيس الوزارة البريطانية ١٩٠٥ ، ضمت هذه

اللجنة في عضويتها اساتذة جامعات في الاقتصاد والبترول والزراعة والتأريخ والاجتماع وشؤون الاستعمار كما ضمت رجالا عرفوا بخبرتهم السياسية وكان تشكيل اللجنة قد أخذ بنظر الاعتبار تمثيل جبهة عريضة من الدول الاستعمارية (بريطانيا ، بلجيكيا ، هولندا ، البرتغال ، ايطاليا واسبانيا)[٧] .

حدد هنري كامبل بنرمان هدف اللجنة بقوله مخاطبا اعضاءها « ان الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر الى حد ما ، ثم تنحل ثم تزول فهل لديكم اسباب أو وسائل يمكن ان تحول دون سقوط الاستعمار الاوربي وانهياره ، أو تؤخر مصيره ؟ هذه هي مهمتكم ايها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا » .

في ضوء هذا الهدف تحددت مهمة اللجنة بما يلي :

اولا ــ استقراء التأريخ واكتشاف كيفية قيام الامبراطوريات واسباب انحلالها للتوصل الى صيغة تحول دون انحلال الامبراطورية الاستعمارية الاوربية .

---

٧ ــ بقي أمر هذه اللجنة سرا الى ان تمكن صحفي بريطاني يهودي من سرقة تقريرها ونشره غير انه قتل في الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ على الجبهة الفرنسية ، وقد حصل الاستاذ المحامي انطون سليم كنعان على نسخة من الاصل واعتمد عليه في محاضرتين القاهما في جامعتي فلورينو وباريس ثم القى بحثا في المؤتمر الثالث لاتحاد المحامين العرب في دمشق سنة ١٩٥٧ بعنوان (فلسطين والقانون) اعتمد فيه على التقرير غير انه لم يذكر كيف حصل على التقرير ولم يشر الى المكان الذي يحفظ فيه غير ان الاستاذ شفيق ارشيدات اشار الى ان الاستاذ انطون ذكر مصدر التقرير في محاضرتيه آنفتي الذكر كما اعتمد عليه الدكتور حسن صبري الخولي ، انظر اتحاد المحامين العرب ، كتاب المؤتمر الثالث دمشق ١٩٥٧ ص٤٥٧ ــ ٤٨٩ ارشيدات: شفيق: فلسطين تأريخاً وعبرةومصيرا (دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة ــ بيروت . ط ــ ١ ، ١٩٦١) ص٣٦ ــ ٤٤ ، الدكتور حسن صبري الخولي : الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، المجلد الاول ص١١٢ ــ ١١٦ .

ثانيا ــ استقراء مستقبل اجزاء اخرى في العالم تتطلع الى العلم والرفاهيــة (هنا اشارة الى حركات التحرر التي عمت العالم في مطلع القرن العشرين) •

ثالثا ــ اقتراح الوسائل التي تمنع تأثير جهود الشعوب الباحثة عن التقدم على مستقبل الامبراطوريــة الاستعماريــة •

النتائـــــج

عكف اعضاء اللجنة على دراسة التأريخ مستفيــدين من تراكم الخبــرة الاوربية عبر اربعة قرون من النهضة والتقدم العلمي ، وتوصلوا الى النتائــج التاليــة :

اولا ــ ان ازدهار الحضارات يكمن في البحر المتوسط فحوضــــه مهــد الاديان والحضارات القديمة ، وفي شواطئه الجنوبية والشرقية خاصة يعيش شعب واحد تتوافر له وحدة التأريخ والدين واللسان والامال وكل مقومات التجمع والترابط والاتحاد وهو دائم الحــركة والثورية، وموطن الثروات ، وهمزة الوصل بين الشرق والغرب •

ثانيا ــ ان دخول الوسائل الفنية الحديثة ومخترعات الثورة الصناعيــــة الاوربية الى المنطقة وانتشار التعليم ودعم الثقافة يؤدي الى احلال الضربة القاضية بالامبراطوريات الاستعمارية •

التوصيــــــات

في ضوء هــذه الحقائــق والاستنتاجات اوصت اللجنة بما يلـــي :
العمل على تجزئة المنطقة وابقاء شعبها على ماهو عليه من تفكك وجهل وتناحر ومحاربة اتحاد شعبها أو ارتباطه بأي نوع من انواع الروابط فكري أو روحي أو تأريخي ، وبضرورة ايجاد الوسائــل العملية القوية لفصلها عــن بعض ،

ولتحقيق هذه الاهداف اقترحت اللجنة : « العمل على فصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن جزئها الاسيوي ... ان اقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البري الذي يربط اوربا بالعالم القديم ويربطهما معا بالبحر المتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة ، وصديقة للدول الاوربية ومصالحها ، هو التنفيذ العلمي العاجل للوسائل والسبل المقترحة » .

ماذا تعني الحرب العالمية الاولى

نتج عن الحرب العالمية الاولى امران جوهريان في سياق التطور التأريخي العالمي وفي سياق التطور القومي العربي الخاص ، كانا حتى الحرب يتطوران كل بصيغته الخاصة ، ولكل منهما عوامل نضجه الذاتي واتجاهاته ووسائله في تحقيق ذلك الاتجاه .

اولا — في سياق التطور التأريخي العالمي العام .

١ — بلوغ الانظمة الاوربية الاستعمارية مرحلة جديدة من النضج ونجاح تجربتها في بناء امبراطورية استعمارية كبيرة .

٢ — تمخض النضال الثوري والاشتراكي في اوربا عن انتصار الشيوعية في روسيا .

ثانيا — في سياق التطور القومي العربي الخاص .

١ — تجزئة الوطن العربي ، واقرار الاحتلال الاوربي لبعض الاقطار العربية في مرحلة ما قبل الحرب وزرع الكيان الصهيوني في فلسطين .

٢ — ظهور الانظمة العربية البديلة لسلطات الانتداب والاحتلال .

٣ ـ تطورات في الحركة السياسية العربية تمثلت في انكفاء الحركات السياسية التي كانت قائمة قبل الحرب العالمية الاولى ، وتقوقعها ، وظهور حركات سياسية جديدة امتازت بالافق السياسي المحلي الضيق والمحدود .

أولا ـ في سياق التطور التأريخي العالمي العام

١ ـ تطور الانظمة الاستعمارية وبناء الامبراطوريات :

ساعد جو الحرب العالمية الاولى على تنفيذ المخطط الاستعماري دبلوماسيا بالدرجة الاولى ومرت مراحل العمل الدبلوماسي لتنفيذه بالمراحل التالية :

آ ـ مد الجسور نحو بؤر اليقظة العربية والعمل على احتوائها قصد توجيهها نحو الدولة العثمانية واضعاف جبهتها الداخلية قدر الامكان وتأمين الاشغال العسكري اللازم لها بما يخفف عن كاهل الدول الاوربية ، وقد تحقق هذا بما عرف بأتفاق حسين ـ مكماهون .

ب ـ التنسيق بين بريطانيا وفرنسا وروسيا لتنظيم كيفية اقتسام املاك الدولة العثمانية ، وهو ما حققته معاهدة سان بطرسبرج سنة ١٩١٦ التي تضمنت مادتها الثالثة ما نصه :

« تقسيم البلاد العثمانية الى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه التالي :ـ

١ ـ بريطانيا .

أ ـ العراق .

ب ـ المناطق العربية التي تشغل الساحل الشرقي للبحر المتوسط من حدود مصر على هذا الساحل جنوبا الى حيفا وعكا وحتى الناقورة شمالا ، اي فلسطين بحدودها الطبيعية وشرق الاردن والقسم الداخلي لفلسطين .

جـ المناطق العربية التي تشغل الساحل الغربي للخليج العربي من البصرة شمالا الى الكويت والبحرين وقطر ومسقط وعمان وحضرموت والمحميات حتى حدود عدن ونهاية البحر الاحمر من الجنوب ، يضاف لهذا احتلالها مصر والسودان •

٢ ـ فرنسا

الساحل السوري على البحر المتوسط من الناقورة جنوبا الى صيدا فطرابلس فبيروت واللاذقية فأسكندرونه حتى الحدود التركية شمالا ، والحدود العراقية شرقا[٨]، اضافة الى احتلالها تونس والجزائر والمغرب •

جـ ـ التفاهم بين بريطانيا وفرنسا على ما يتعلق بهما مما يخص الاراضي العربية وهو ما حققته معاهدة سايكس ـ بيكو ١٩١٦ التي تضمنت روح معاهدة سان بطرسبرج مضافا اليها فقرة خاصة تتعلق بفلسطين تنص على انشاء ادارة دولية فيها يعين شكلها بعد استشارة روسيا •

د ـ تصريح بلفور سنة ١٩١٧ الذي اكد التحالف الصهيوني ـ البريطاني •

هـ ـ نظام الانتداب الذي تمخض عن موتمر الصلح لادارة المناطق الخاضعة سابقا للدولة العثمانية ، الذي اقر في المعاهدات الدولية اللاحقة واصبحت بموجبه فلسطين تحت الانتداب البريطاني •

لقد افرغ تصريح بلفور في نظام الانتداب البريطاني في فلسطين ومارست بريطانيا من خلال تطبيقها لنظام الانتداب فيها عملية تمكين تدريجي للعصابات الصهيونية من السيطرة عليها ، فقد شهدت الحقبة بين موتمر الصلح وسنة١٩٤٨ تنفيذ الخطوات اللازمة لاعلان تأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين وتشريد شعبها العربي في اقذر عملية اغتصاب عرفها التأريخ ، تتنافى مع ابسط القيم الاخلاقية والانسانية ، اتفقت عليها اوربا الرأسمالية والشيوعية على السواء •

---

٨ ـ الخولي : د. حسن صبري ص١٧٦ ـ ١٧٧ .

٢ ـ الشيوعية في روسيا

شهدت السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الاولى من القرن العشرين نضج الاوضاع في اوربا وانقسامها تبعا لمصالحها الاقتصادية على كتلتين مثلت انكلتر وفرنسا عصب الاولى فيما مثلت المانيا عصب الثانية، وكانت الجهود الدبلوماسية والقوى الاخرى للدول تعمل باتجاه سوق الرياح لمصالح القوى التي تمثلها وعبر هذا التطور كانت عوامل القوة تتركز في اطراف في حين ان اطرافا اخرى كانت تشهد ضغطاً محسوسا بل ان سعيها للحصول على موقع قوة ونفوذ بدأ ينهكها وهكذا في حين كان واضحا ان المانيا وبريطانيا وفرنسا تتصارع على النفوذ مع تنامي قواها الذاتية كانت روسيا مثلا والنمسا تتصارع في جبهتين خارجية وداخلية ، ولاسيما روسيا وهكذا كانت نتيجة الحرب انتصارا بالنسبة الى انكلترا وحلفائها وهزيمة لروسيا وللنظام القيصري وقيام الثورة البلشفية وهي الظاهرة المهمة في سياق التطور العالمي العام .

الشيوعية العالمية :

في النصف الثاني من القرن التاسع بدأ كارل ماركس يضع اسس مذهب جديد عرف فيما بعد بالماركسية يقول لينين . « لقد تابع ماركس واتم على نحو عبقري التيارات الفكرية الاساسية الثلاثة في القرن التاسع عشر التي تعزى الى الامم الثلاث الاكثر تقدما في العالم الفلسفة الكلاسيكية الالمانية والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانكليزي والاشتراكية الفرنسية »[٩] ، فالماركسية اذن هي خلاصة تطور الفكر الاوربي في ثلاثة اتجاهات كل منها يمثل نمطا خاصا من التطور لشعب خاص ، الفلسفة (المانيا) الاقتصاد السياسي (انكلترا) الاشتراكية (فرنسا) ، عمليا يعني هذا ان الماركسية هي منعطف آخر في التطور الاوربي الى جانب الرأسمالية اذا اولينا اهتمامنا بأن اوربا ذات نمط حضاري خاص مختلف ، وعندما تكون الماركسية هي خلاصة التطور

---

٩ ـ لينين ، مصادر الماركسية الثلاثة ، (دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية ـ موسكو) ص٢١ .

الاوربي فهي بالضرورة قراءة للتأريخ الاوربي • هذه الخلاصة « عرفت » بالمادية الحديثة « والاشتراكية » العلمية المعاصرة ، يقول ماركس : « ان فن الانتاج يبرز على نحو عار اسلوب عمل الانسان تجاه الطبيعة اي تفاعل انتاج حياته المادية وبالتالي منشأ العلاقات الاجتماعية والافكار أو المفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذا النضال »(١٠) ويوضح هذه المعادلة في كتابة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي بقوله « ان الناس اثناء الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية ، مستقلة عن ارادتهم وتطابق علاقات الانتاج هذا يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع اي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي تطابقه اشكال معينة من الوعي الاجتماعي ان اسلوب انتاج الحياة المادية يكيف تفاعل الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة فليس ادراك الناس هو الذي يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين ادراكهم وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج الموجودة او مع علاقات الملكية التي كانت الى ذلك الحين متحركة ضمنها »، هذا التناقض في علاقات الانتاج يؤدي الى نشوء الصراع الطبقي الذي بموجبه كلما ازداد نمو النشاط الاقتصادي للطبقة القائدة اتسع حجم الطبقة النقيض، فالتاريخ اذن عملية مرسومة يحدد ملامحها اكتشاف قانون الصراع السائد في المجتمع •

من هذا المنطلق اصبحت نظرة ماركس وخلفاءه الى القومية على انها حركة برجوازية والنضال القومي نضال برجوازي وهو مرحلة في تطور التأريخ تنتهي بزوال مبرراتها ، وان التأريخ هو مجرد تسجيل للصراع الطبقي لذلك فالحركة الثورية تمتلك قانونا للثورة بمجرد ان تضع يدها على ما يساعد تطبيق هذا القانون في الواقع الذي تعيش فيه •

١٠- لينين ، مصادر الماركسية الثلاثة ، ص٢٩ .

غير ان هذا التحليل ليس صحيحا في كل الاحوال ، فهو قانون مستخلص من اوضاع اوربا الحديثة التكوين تأريخيا ، فماركس وانجلز توفر لهما الاطلاع على تأريخ اوربا التي كانت تسر بتطورها التأريخي بتلك الظروف ولم تعرف تطورا تأريخيا اكثر نضجا ، غير انهما لم يطلعا على تأريخ العالم ليكشفا ان هناك تطورا تأريخيا يختلف عن اوربا وانه شهد نضجا آخر في مراحل تأريخية سابقة لاوربا بعشرات القرون ، فأذا كان الان يعيش ظروفا من التطور المحدود فليس لانه يمر بقانون التطور الذي استكشفاه انما لانه يعيش مرحلة انحطاط وسقوط بسبب عوامل داخلية وخارجية ابرزها السيطرة الاستعمارية وان هذه البيئات شهدت تكونا قوميا قبل مئات السنين وان قومياتها ليست وليدة عصر القوميات في اوربا فاذا كانت قوميات اوربا نشأت في عصر الاستعمار فأن قوميات اخرى نشأت في عصور من الثورة ضد التجزئة والاحتلال والظلم معتمدة على عصور التمدن والحضارة والتنوير .

لقد كان لينين دقيقا جدا عندما حدد العناصر الاساسية للشيوعية الروسية بأنها (اوربا) وتجربتها (الماركسية) فهو بهذا التحديد حدد المنظور الحضاري للشيوعية والظروف التأريخية لنشأتها، هي بنت قراءة التأريخ الاوربي، فماركس وانجلز باعترافهما لم يتوفر لهما قراءة تأريخ العالم خارج اوربا لذلك لم يستطيعا ان يريا نمطا حضاريا آخر أو صيغة في الانتقال التأريخي وتجدد الحضارة غير النمط الاوربي (المادي) والصيغة الاوربية القائمة على نظرية « هدم الهادم » .

ثمة مسألة اخرى في قول لينين عن تجربة اوربا الماركسية التي عدت نفسها تصحيحا في تطور الفلسفة الالمانية (فلسفة هيجل) تمّ عندما اكتشفت نقطة الضعف في بنائه العام لجوهر فلسفته (الجدل) ولميدانه الفكري[11]، هذا الاكتشاف قام به فيورباخ الذي استخدم منهج هيجل في التوصل الى ان الكينونة

١١- د. ريازانوف ، محاضرات في تأريخ الماركسية ، ترجمة جورج طرابيشي (دار الطليعة ، بيروت ط١ ، ١٩٧٩) ، ص٥٦ .

هي التي تحدد الفكر وليس العكس كما قال هيجل[١٢] ثم جاء ماركس واخذ راى فيورباخ مع اضافة هي ان الكينونة التي تحدد وعي الانسان تحيل وعيه في حركة دائمة ، هنا اصبحت الفلسفة عند ماركس ليست تأملية كما هي عند فيورباخ انما تحويلية ايضا تحول العالم[١٣] ، وان هذا يتحقق في طبقة واحدة في تلك الفترة من تأريخ العالم هي البروليتاريا[١٤]، وبين هيجل وماركس فرق كبير هناك « الفكر مصدر الاشياء » وهنا « المادة مصدر الاشياء » ، هذا الاختلاف الا يقود الى وعي بأنه من الخطأ القول ان الجدل الماركسي هو تصحيح للجدل الهيجلي !

على اية حال احدث خط هيجل في اوربا مدنية اوربا التي حملت رايتها الدول الاوربية الرأسمالية ، واحدث خط ماركس في اوربا ايضا مدنية اوربا الاخرى التي حملت رايتها ايضاً الدول الاوربية الشيوعية ، اذن لكل من الاثنين جدله وليس ثانيهما تصحيحا للاول .

ثمة مسألة اخرى بصدد الماركسية تتعلق بالاطار العام للحقبة التأريخية التي نشأ فيها مؤسساها وبالتالي التي نشأت فيها هي فالاطار العام الذي احاط البشرية هو الاطار الامبراطوري الاممي ، خضوع امم متعددة واجناس متعددة لسلطة سياسية تمثل العنصر القائد في الامبراطورية (روسيا ، النمسا ، المانيا ، الدولة العثمانية) ونفس صورة هذا الاطار العام بتفاصيل ادق احاطت بماركس وانجلس كونهما من ابناء الراينلاند الاقليم الاكثر اممية وتصنيعا بين الاقاليم الالمانية[١٥] ، حيث اجتمع العمال من واقع امبراطوري وليس قوميا .

١٢- د. ريازانوف ، محاضرات في تأريخ الماركسية ، ص٥٧

١٣- د. ريازانوف ، محاضرات في تأريخ الماركسية ، ص٦١

١٤- د. ريازانوف ، محاضرات في تأريخ الماركسية ، ص٦٢

١٥- د. ريازانوف ، محاضرات في تأريخ الماركسية ، ص٤٤

لقد اصبح الفكر الماركسي مصدرا للعديد من الحركات السياسية في العالم ، غير ان ابرز استخدام له حصل في روسيا على يد لينين الذي استطاع ان يستقطب المقولات التي تخدم تغيير المجتمع في روسيا ومنحها قدرة التغيير عندما اوجد الاداة القادرة على توظيف تلك المقولات (الحزب) ، فالقيمة التي احدثها ماركس في فكر فيورباخ (التحويلية) ما كانت لتتحقق بشكل آلي ذاتي ولينين هو الذي منحها تلك القدرة ، ولكن انتصار التجربة اللينينية في روسيا احاط الاشتراكية والكثير من الثوريين في العالم بنشوة الانتصار فاعتقدوا ان صيغة التوظيف اللينينية هي المصدر الجديد للثورات في العالم وقد خدم تعميم ذلك ، الاعتقاد بأن قانون الصراع الطبقي وحده القانون في تأريخ البشرية غير ان هؤلاء الثوريين نسوا ظروف الحركة التأريخية وشروط التطور الملائمة لها خارج روسيا وشكل التكيف الذي تفرضه على الماركسية وهو ليس بالضرورة الشكل الذي اخذته عملية التكيف الروسي للماركسية ، اضافة الى هذا نسوا أن العالم هو ليس اوربا وان اوربا في العالم القديم أو الجديد ليست كل شيء وليس بالضرورة اهم الاشياء . وتحول هذا الاعتقاد تدريجيا الى نوع من التحجيم الايديولوجي لتطور الفكر في العالم وهي ظاهرة عانى منها الثوريون اكثر من غيرهم لكونهم المعنيون بنتائج تطور الفكر الثوري ، وقد عانى الوطن العربي من نتائج هذا الاعتقاد اذ اصبحت الثورة العالمية من بحث في كيفية تفجير العالم وتغيير العلاقات السائدة الى كيفية كبح جماح القوى الثورية وتأكيد تبعيتها للشيوعية الدولية .

الامتداد الشيوعي في الوطن العربي :

اشرنا الى تطورات الوضع الدولي ومن ابرزها ظهور الحركة الشيوعية ووصولها الى زرع بؤرها في اماكن متعددة في آسيا واوربا ، ثم ظهور المانيا النازية وتأثيرها الدعائي في الشعوب ضد الاحتلال المنفرد بالغنائم ، ثم ظهور الولايات المتحدة الامريكية قوة اقتصادية بين الدول الكبرى التي انهكتها الحرب الاولى ، وتقدمها الى المستعمرات شريكا مع تلك الدول ولاسيما في المجال

الاقتصادي وبما ان امريكا جزء من النظام الرأسمالي الذي أتينا على دراسته والذي ورثته بكل ما يمثل من مناطق نفوذ وخبرة الاستعمار فأننا نقتصر هنا على مانعرضه عن الشيوعية في الوطن العربي •

نجحت الحركة الشيوعية في ايجاد بؤر لها في اقطار متعددة من الوطن العربي في العراق وسورية ومصر والسودان والمغرب العربي ، والملاحظة الجوهرية على هذه البور انها نشأت في مجالين وركزت عليهما طوال تطورها التأريخي حتى الوقت الراهن :

الاول • الاقليات القومية •

الثاني • الاقليات الدينية •

ففي مصر نشأت التنظيمات الشيوعية الاولى في اوساط اليهود المصريين وابناء الجاليات الاوربية المهاجرة[١٦] ، وكان لليهود دور كبير في الحركة الشيوعية في مصر يعبر عنه دور هنري كوريل اليهودي الذي اسس الحزب الشيوعي المصري ، لذلك اثرت خلفية اعضاءه اليهود المرتبطين بالحركة الصهيونية العالمية في سياسته وبرز هذا التأثير في الموقف من القضية الفلسطينية سنة ١٩٤٨ وبالذات الموقف من اقامة الكيان الصهيوني حيث برز في الحزب الشيوعي المصري اتجاهان :

الاول :ـ يرى ان هناك جانبا اشتراكيا وتقدميا في الحركة الصهيونية وانه من الممكن ان يكون عامل تخصيب في كل النظم العربية التي كانت آنذاك اقطاعية وخاضعة للاستعمار وهو امر من شأنه ان يعجل بعملية التطور الاجتماعي في المنطقة لذلك وافق اصحاب هذا الرأي على التقسيم وكان الاتحاد السوفياتي يؤيد هذا الاتجاه •

١٦ـ الخولي : لطفي . مصر والوطن العربي . مجلة الوطن العربي ، السنة الثالثة ، العدد ١٤٤ ، في ١٩٧٩/١١/١٥ ، ص٣٠ ، ٣١

الثاني :ـ كان يرى في الصهيونية امتدادا للامبريالية والاستعمار واذا كانت هناك بعض القوى الاشتراكية والماركسية مشاركة في هذه العملية فليس لها وزن كبير[١٧] • والواقع ان اليهود في مصر عملوا باتجاهين ، باتجاه اقصى اليسار ومنهم انبثق اليسار المصري عموما ، وباتجاه اقصى اليمين ومنه نشأت المنظمات الصهيونية في مصر[١٨] ، ومع هذين الاتجاهين نشطت الحركة الماسونية نشاطا بارزا •

وفي العراق لم يكن حال الحزب الشيوعي احسن حظا من الحزب الشيوعي المصري ، فهو أيضا نشأ وسط الاقليات القومية والطوائف الدينية وكان المناخ العام لنشوء اوليات افكاره هو تنامي النشاط الصهيوني في العراق وتخوف السلطات البريطانية من نمو الدور القيادي الذي بدأ العراق يحتله في الحركة القومية الهادفة الى انقاذ فلسطين من المساعي الاستعمارية والصهيونية ، وتحرير سوريا من الاحتلال الفرنسي[١٩] ، وفي مثل هذا المناخ بدأت الافكار الماركسية تظهر بين المثقفين اجابة لنداء مؤتمر باكو (١ ـ ٨ أيلول ١٩٢٠) الموجه الى فلاحي العراق وسوريا والجزيرة العربية للثورة على الانكليز والفرنسيين ، وهو المؤتمر الذي بالرغم من انه عقد ليمثل هذه الاقطار الا ان عدد العرب الذين حضروه كان ثلاثة فقط مقابل ٤١ يهوديا ممن نزحوا الى فلسطين ، وكان اول المتحركين اجابة لهذا النداء فهد (يوسف سلمان) المولود في بغداد ١٩٠١ من عائلة مسيحية نزحت من تركيا الى العراق ، وتلقى تعليمه في مدرسة الطائفة السريانية الابتدائية ثم مدرسة الرجاء الصالح الامريكية[٢٠] •

١٧ـ لطفي الخولي : مصر والوطن العربي ، ص٣٠ ، ٣١

١٨ـ د . عبدالعظيم رمضان . صراع الطبقات في مصر . ص٤٠ .

١٩ـ الدكتورة رجاء حسين الخطاب ، تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره في الحركة الوطنية . ص١٧٤ .

٢٠ـ عبدالكريم : سمير . اضواء على الحركة الشيوعية في العراق (دار المرصاد ـ بيروت) جـ١ ، ص١٩ ـ ٢١ .

اصبح الحزب الشيوعي العراقي بفعل نشأته هذه اسير مزاجية الاقليات القومية والطوائف الدينية التي كانت حركة الاستعمار الاوربية قد شحنتها حتى ذلك الوقت بالوسائل النفسية والثقافية المختلفة ، وسيطرت عليها سياسيا ، واقنعتها بأنها لن تجد الحماية وسط الاكثرية القومية العربية الا بأرتباطها بالاستعمار .

قادت هذه النشأة الحزب الشيوعي العراقي الى الوقوع في شرك السيطرة الصهيونية التي دأبت في العراق مثلما فعلت في مصر الى توجيه نشاط اليهود باتجاهين يساري ويميني ، فكان من نصيب اليهود ذوي الارتباطات الصهيونية ليس المواقع القيادية الرفيعة في الحزب الشيوعي العراقي فقط ، بل ووجود واسع في قواعده بعد ان ازاحت قيادته من ابناء الطوائف والاقليات من غير اليهود ، ومنذ بداية تشكيلاته وحتى اوائل ١٩٤٠ ، وبدءً من هذا التأريخ أخذ الصهاينة يخططون للسيطرة على الحزب نهائيا ، ففي سنة ١٩٤٣ تأسست منظمة شيوعية اطلقت على نفسها (الحزب الشيوعي العراقي) ترأسها اليهودي يوسف هارون زلخة وكان (٦) من اعضائها يهودا من مجموع (١١) أما البقية فهم من الاقليات القومية الدينية ، عندما دعت جماعة فهد هذه المنظمة الى الدخول في الحزب الشيوعي الاصلي وافقت على شروط فهد ، ونجحوا ان يشكلوا منظمة واجهية للحزب عرفت بأسم عصبة مكافحة الصهيونية كان معظم اعضائها من اليهود الصهاينة وأدت دورا في دفع الموقف الدولي (لجنة التحقيق الامريكية ـ البريطانية) بأتجاه التقسيم الذي كان الاتحاد السوفياتي يتبناه[٢١] .

ومنذ ذلك الوقت اصبح الحزب الشيوعي اسير الصهاينة اليهود فبيوتهم مقرا لاوكاره الرئيسية ومخابىء قائدهم التأريخي فهد ، واموالهم لخدمة

٢١ـ الموسوعة السرية للحزب الشيوعي العراقي السري (اصدار دائرة التحقيقات الجنائية بغداد) تضم اوراق التحقيق كافة وافادات اعضاء الحزب الشيوعي والوثائق التي كانت تعثر عليها في اوكارهم جـ١/ ص٤٣ .

نشاطاته الى ان تم اعتقال فهد وجماعته سنة ١٩٤٥ ، حيث تسلم قيادة الحزب الشيوعي يهوديا صديق ونجح ان يسند معظم المهام الحزبية فيه الى اليهود الذين كان العديد منهم خاضعين لنفوذ الحركة الصهيونية ، ولم ينته دور اليهود الا في اوائل الخمسينات لصالح ابناء الاقليات والطوائف القومية والدينية الاخرى .

ان ابرز الظواهر في مسيرة الحزب الشيوعي العراقي هي :

اولاً — ظاهرة التبعية الايدلوجية والسياسية التامة للاتحاد السوفياتي « بالنسبة لموقفنا من الاحزاب الشيوعية ، سيضع لنا المؤتمر السابع للاحزاب الشيوعية خططا وقواعد نسير عليها في مكافحة اعدائنا »[٢٢] ، « اننا نعاهد بأننا سنبث مبادىء ثورة اكتوبر الى ابعد زوايا بلداننا الشرقية ونغرس التعاليم الماركسية في نفوسها غرساً »[٢٣] ، وقد بقيت هذه التبعية قائمة حتى الان في كل مواقف الحزب .

ثانياً — اقتصار نشاط الحزب على ابناء الاقليات القومية والطوائف الدينية وتسليمهم المراكز القيادية ونستطيع ان نميز ثلاث مراحل في هذا الاتجاه :

١ — المرحلة الاولى ٢٧ — ١٩٣٦ حيث سيطرت الاقليات القومية والطوائف الدينية من الاكراد والارمن والنساطرة التيارية .

٢ — المرحلة الثانية ١٩٣٨ — ١٩٥٣ اتسمت بسيطرة اليهود التي بلغت قمتها في سنة ١٩٤٨ واستمرت الى ١٩٥٣ ضعيفة نسبيا .

٣ — المرحلة الثالثة بعد ١٩٥٣ تتسم بعودة سيطرة الاقليات والطوائف من غير اليهود على قيادات الحزب .

٢٢— سمير عبدالكريم ، اضواء على الحركة الشيوعية في العراق ٢٣/١ .

٢٣— المصدر السابق ، ص٣١ نقلا عن جريدة الشرارة (العراق ، العدد ١٢ تشرين الثاني ١٩٤١ .

ثالثا ـ التنكر للقضايا القومية وفي هذا المجال يمكننا تأشير المواقف الجوهرية الثلاثـــة :

١ ـ حرص الحزب على ارسال متطوعين للحرب الاهلية الاسبانية سنـة ١٩٣٦ وتجاهل انباء الثورة الفلسطينية التي كانت تدعو ابناء الامـــة للتطوع في صفوفها .

٢ ـ وقوفه ضد ثورة مايس ١٩٤١ واتهامه اياها بالنازية بسبب تحالف بريطانيا مع روسيا آنذاك « يا صاحب السمو ... لم يكن رشيد عالي ولا غيره يجرؤ على مخالفة الدستور ولم يكن في مقدور رجال الجيش ان يتحدوا مقامكم السامي لو كان الشعب ... »[٢٤] ، وبسبب هـذا الموقف تحسنت علاقة الحزب الشيوعي بالسفارة البريطانية عن طريق زكي خيري عضو اللجنة المركزية الذي كان يعمل مترجما في السفارة البريطانية ، ونشأت علاقة مالية وتجسسية مباشرة بين أ . بيشوب ، مدير المخابرات البريطانية في الشرق الاوسط وفهد مقابل قوائم بأسمـاء الوطنيين من غير الشيوعيين ممن عرفوا بمحاربة الانكليز ، وكان الياس زوج اخته هو واسطة الاتصال .

٣ ـ موقفه المعادي لحقوق الشعب العربي الفلسطيني واعترافه بالكيان الصهيوني وتأييده التقسيم سيرا وراء الموقف السوفياتي وقد قام قياديو الحزب بتنظير موقفه هذا ، قال زكي خيري يومها : « ان يهود فلسطين ليســوا قلة طائفية بل انهم قوميـــة ... تؤلف اكثرية في قسم معين من فلسطين لها فيه حياة اقتصادية مشتركة زراعية ، صناعية ، تجارية » ، ثم يضيف « الحقيقة ان تشريد عرب فلسطين ومعاناتهم وويلات الحرب كانت نتيجة لاشعال نيران الحرب من قبل المستعمرين والرجعية حليفتهم ولو أن قرار هيئة الامم المتحدة نفذ بأخلاص باقامة دولتين مستقلتين لمـا تعرضـت

٢٤ـ المصدر السابق : ص٣٤ نقلا عن جريدة الشرارة العدد ٨ تموز ١٩٤١ .

فلسطين للحرب ولما وجد اليهود حاجة لامتشاق الحسام وهم المدينين كذا بكيانهم السياسي الراهن الى قرار الامم المتحدة الذي اتخذته تحت ضغط الرأي الديمقراطي العالمي وصلابة موقف الاتحاد السوفييتي»[٢٥].

٤ ــ معاداة الوحدة العربية :

ظهرت في مسيرة الحزب الشيوعي العراقي سمة العداء لحركة القومية العربية والنضال القومي ولاسيما النضال الوحدوي ، لهذا وقف الحزب ضد أية اتجاهات وحدوية لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وفي المكتب السياسي للحزب ربط الحزب بين رفضه للوحدة ، وبين تحولات وطنية اجتماعية وسياسية وفكرية رفضها هو وتنكر لها (جبهة الاتحاد الوطني وحرية الاحزاب والصحافة) غير أن الانحراف كان في ربطه عدائه للوحدة مع نمو الاقتصاد والرأسمال الوطني العراقي لان الوحدة على حد قوله لاتوفر للاقتصاد فرصا كافية للازدهار والتطور ، ولن توفر شروطا عادلة للتعاون الاقتصادي بين العراق والجمهورية العربية المتحدة[٢٦] ، وفي مقال لجريدة الحزب اشارت الى انه « كان هنالك ميل لفرض شكل معين من الوحدة العربية على جمهوريتنا ، فدعونا مع جميع العناصر المؤمنة بالديمقراطية الى نبذ ذلك ، ثم جرت احداث كان ينبغي ان تدعو الى صيانة الجمهورية بأعتبارها المهمة الاشد الحاحا »[٢٧] ، وقد استمرت تعبئة الحزب للمناخ العام في العراق ضد الوحدة ، وجند الحزب ليس ممارساته اليومية بين الجماهير وضغوطه على القوى السياسية المعتدلة وارهاب القوى الوحدوية فقط وانما نشاطه الثقافي ايضا ، يقول عامر عبدالله عضو المكتب السياسي للحزب في

٢٥ــ سمير عبدالكريم : اضواء على الحركة الشيوعية في العراق ، ١٠٦/١ نقلا من مقالة خطية بقلم زكي خيري ــ الملفة الشخصية لزكي خيري في الامن العامة ، مقالة في جريدة الوطن (عدد اوراقها ١٧٤ صفحة) .

٢٦ــ سمير عبدالكريم . اضواء على الحركة الشيوعية في العراق . جـ٢ ص٥٦/ بيان المكتب السياسي في ٣ ايلول ١٩٥٨ .

٢٧ــ اتحاد الشعب (العراق) ١٩٥٩/١/٣٠ .

محاضرة عن الطريق التأريخي لوحدة الامة العربية • « ليس من المجدى في ايامنا هذه الافراط في الحديث عن دولة عربية واحدة ، مثلما هو مجد الحديث عن امة متحررة ، نستطيع ان نصون استقلالها • ان البلدان العربية لاتسير على وتيرة واحدة لافي حركة تطورها العام ولافي مسيرتها نحو الوحدة »[٢٨] وفي هذا الرأي يظهر عامر عبدالله الماركسي – اللينيني تنكره لابرز شروط المنهج العلمي وهو استخلاص الظروف الموضوعية في الواقع الاجتماعي ويستسلم للمتغيرات الطارئة المفروضة على الواقع التاريخي في المرحلة الاستعمارية ، يؤكد ذلك بقوله « وواقع الحياة يدل على أن البلدان العربية ستستمر في مسالك متعددة متباينة ••• ان التجزأة اصبحت واقعا ، وان الظروف الخاصة لايمكن تجاهلها » •

ان هذه الظواهر الثلاث (التبعية الايديولوجية والسياسية ، واعتماد الاقليات ، ومناوئة القضايا القومية) مضافا اليها السمة الجوهرية للماركسية (عدم قراءة التأريخ العربي) جعلت الحزب الشيوعي العراقي خاصة والاحزاب الشيوعية عامة تبدو غريبة عن الواقع العربي ، فالذي يتطلع الى الكرملين •• في سبيل خلاص الانسان النهائي لايرى في كونه ضمن الارض العربية معنىً ، وبالتالي تصبح قضية فلسطين عنده مسألة حق الصهاينة في تقرير مصيرهم والذي يستخدم قضايا الاقليات القومية والطائفية التي دجنها الاستعمار الاوربي ثقافيا واجتماعيا ، يصبح عنده بالضرورة غير مجد الحديث عن أمة عربية متحررة تستطيع ان تصون استقلالها • هذا هو مأزق الاحزاب الشيوعية العربية التأريخي •

٢٨– اتحاد الشعب (العراق) ١٩٥٩/٢/١٦ نص محاضرة عامر عبدالله في جمعية الخريجين •

ثانيا – في سياق التطور القومي العربـــي

١) التجزئــة :

تطور احتلال الدول الاوربية لاجزاء من الوطن العربي عبر المراحــل التالية :

١ – احتلال بريطانيا الساحل الجنوبي والشرقي من جزيرة العرب بين عدن وعمان الى الكويت •

٢ – احتلال فرنسا الجزائر والامتداد حواليها الى تونس والمغرب •

٣ – احتلال بريطانيا مصر والامتداد جنوبا الى السودان ، ثم امتداد القوي الاوربية عبر ساحل البحر الاحمر جنوب السودان الى الساحل الكيني وهو ما يعرف الان بأرتيريا والصومال •

٤ – التفاهم البريطاني – الفرنسي على اقتسام المتبقي مــن اراضي الوطن العربي تحت الحكم العثماني وهو المشمول بمعاهدة سايكس – بيكو وظهور مايعرف الان (العراق – سوريا – لبنان – فلسطين) •

٥ – فرض نظام الانتداب على اقطار المشرق العربي واقرار الاحتلال المشار اليه في الفقرات (١–٣) •

هكذا استقرت الصيغة السياسية للسيطرة الاوربية على الوطن العربي (تجزئة الوطن الواحد)، ومن خلال الاحتلال والانتداب الاحتلالي ، والسياسة التــي اتبعتها الدول الاوربية في مجال التعليم ، واثارة الاقليات القومية والطوائف الدينية ، واطلاق يد الجاليات الاجنبية وتنفيذ سياسة التفكك الاجتماعي على اسس عنصرية وقبلية وطائفية ومذهبية نجحت السلطات الاستعمارية في تنفيذ توصية لجنة (كامبل بنرمان) غــير ان اخطــر الوســائل اطلاقــا كان زرع الكيان الصهيوني فقد تحول تصريح بلفور الى نص قانوني وهدف سياسي ملزم عندما تم استبدال الاتفاق الفرنسي البريطاني الروسي في (سايكس –

بيكو) على مبدأ الادارة الدولية لفلسطين بوضعها تحت الانتداب البريطاني ، ومن ثم ادخال بريطانيا تصريح بلفور في نظام الانتداب على فلسطين ، ومنذ ذلك الوقت اصبحت مهمة التواجد البريطاني في فلسطين هي تسهيل مهمة السيطرة الصهيونية عليها ، فلما وصلت تلك السيطرة مرحلة النضـج ، وقتت بريطانيا الغاء انتدابها مع اعلان الصهيونية العالمية تشكيل مايسمى (بالكيان الصهيوني) وهو القرار الذي اعترف به الغرب والشرق على السواء رغم تناقضهما الايديولوجي ، وهكذا اصبحت التجزئة مكرسة ابتداءً بزرع شعب غريب وعدو للامة العربية قدر له ان يكون موقعا متقدما للقوى الاستعمارية واداة طيعة في تنفيذ المصالح الاستعمارية منذ تشكيله والى الان .

٢) ظهور الانظمة العربية التقليدية البديلة لسلطات الانتداب والاحتلال وهي عملية انجزت نتيجة ضرورات وظروف أملتها مرحلة ما بعد الحرب (اشتداد المعارضة للاحتلال المباشر والنفقات الباهظة التي تكلفها عملية الاحتلال وامكانية ادارة المناطق عن طريق متعهدين محليين) ، فقد شكل حكم محلي في العراق والاردن وسوريا ومصر وليبيا ولبنان وتونس ومراكش والسـودان وبقيت اجزاء من الوطن العربي تحت الاحتلال المباشر مثل الجزائر والصحراء الغربية واقسام من مراكش والصومال وارتيريا وعدن وساحل الخليج العربي ، فيما حافظت بريطانيا على صداقة خاصة مع آل سعود وحدثت هذه التطورات على مراحل وتباعا ولم تكن تعني ما قد يتبادر الى ذهن القاريء من انها حركـة استقلال تام وانما هي كيانات شكلية واشكال باهتة للاستقلال السياسي ، فقد بقي نفوذ السفارات الاوربية قويا تدعمه قواعد عسكرية متعـددة وتعطيـه الشرعية المعاهدات الجائرة والارتباطات الاقتصادية والاحلاف الاستعمارية ، مثل ميثاق سعد اباد ثم حلف بغداد الذي ربط العراق بكل من تركيا وايران وباكستان واميركا وانكلترا .

٣) تطور الحركة السياسية العربية :

وطوال المرحلة التي تلت اقرار وتسوية نتائج الحرب العالمية الاولى شهدت اقطار الوطن العربي ظهور حركة سياسية جديدة في بعض جوانبها ، وفيما استجد لبعض جوانبها القديمة ، فحتى الحرب العالمية الاولى كانت هناك حركة قومية عربية نشطة وان تفاوتت في مستويات نضجها وعمق وعيها ونقاء اتجاهاتها ، تختلط فيها العواطف الدينية بأوليات الوعي القومي المتجدد المنطلق من نظرة عربية معاصرة الى الخلفية التاريخية للامة العربية ، وهي بين هذه النظرة والنظرة المترددة شكلت اتجاهات وتيارات اجهضتها الحرب جميعا ، وأسدلت عليها الستار وان كانت قد نجحت في احداث دوي محدود مثّل آخر (طلقاتها) حتى ذلك الوقت كما عبرت عنه احداث عامي ١٩١٩ — ١٩٢٠ من ثورات حتى ليصح تسميتها بعامي الثورة القومية ، بعد هذا الصعود الفاشل انكفأت هذه الحركات وتحولت الى حركات منغلقة منكفئة الى افكارها مستسلمة يائسة فكانت في انكفائها اكثر خطرا من هزيمتها •

أما بعد الحرب العالمية الاولى واقرار الاحتلال الاستعماري وفرض الانتداب على ما كان باقيا خارج الاحتلال المباشر حتى قيام الحرب ، وما ترتب عليه من ظهور تلك الاشكال الباهتة لحركة الاستقلال الزائف التي ولدت بموجبها الانظمة العربية الراهنة فأن الحركة السياسية اتسمت بظهور احزاب يفاجأ المدقق بمناهجها بتلك القطيعة الشديدة بينها وبين ماسبقها من وعي ومع ان بعضها كان يقف في الصف المعارض للاحتلال الا انه لم يكن يعني شيئا طالما انه في معارضته ينطلق من الواقع الذي صنعه الاستعمار ويقبل بالتقولب في حدوده ويغرق نفسه ومناهجه السياسية بالمشاكل الاقليمية والقطرية التي دجنها الاستعمار ويتحول بسببها الى مدافع عن التجزئة ، بل قطريون كل اولئك المؤرخين والمفكرين الذين تصدوا لدراسة هذه الحركات السياسية محاولين البحث فيها عن الوطني واللا وطني ، عن الوطني القومي والوطني اللا قومي فهم انساقوا الى التجزئة عندما اهملوا التعامل مع ظواهر التجزئة من خلال السياق القومي واعتمدوا سياق التجزئة •

لذلك شهدت هذه المرحلة تناقض الجماهير العربية مع الانظمة السياسية التي افرزتها مرحلة التجزئة تناقضا اجتماعيا (في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية) وعبر هذا التناقض عن نفسه في صيغ الرفض الجماهيري المتعددة فكريا ونضاليا وثوريا وسجلت عملية الرفض الجماهيري فشل الانظمة اولا واشرت ضرورة زوالها مستقبلا كما انها اثبتت عجز الحركات السياسية ذات القيادات (الفردية او الحزبية) التي افرزتها مرحلة التجزئة ليس في قيادة النضال الوطني والقومي فقط بل وحتى قيادة النضال في حدود الانظمة والمناخ العام الذي ولدت فيه تلك الحركات السياسية ، ومع ازدياد التراكم في عملية الرفض بدأت تتكون بؤر ثورية عبرت عن اشكال من الوعي اشبه بالرؤى تحوم بين الماضي المجيد وبين المستقبل الغائم تتعبها ظروف المرحلة التي تعيشها ، بعضها ذوى وانطفأ ، وبعضها انكفأ يائسا ، وبعضها استمر حتى بصيغة التذكير وتسجيل المؤشرات على الطريق ، واذا كان النفوذ الاستعماري الاوربي امتد الى اقطار الوطن العربي في شكل عملية احتلال فمعنى هذا بالضرورة استمرار صيغ العمل القديمة الرامية الى ابقاء الواقع الاستعماري يشكل المظهر العام للواقع العربي وشكل حركته اليومية ، غير ان المرحلة شهدت امتداد التبشير بالشيوعية ذلك الامتداد الذي نجح في زرع بؤره في العراق وسوريا ومصر واقطار المغرب العربي والسودان كما شهدت المرحلة تصاعد العمل لاقامة الكيان الصهيوني في فلسطين ، وبوادر ظهور الحركة النازية والفاشية في كل من المانيا وايطاليا .

تلك هي الظروف التي كانت تنمو بها بؤر الوعي العربي المتجدد وتتحرك فيها ظروف الاحتلال والتغلغل الشيوعي وخطر الاغتصاب وضغط الانظمة العميلة وعجز الحركات السياسية التقليدية ويأسها وتيئيسها .

انتهت الاوضاع في الوطن العربي الى الشكل الذي رتب لان يكون واقعا للامة العربية وبذلت الدول الاستعمارية جهودا كبيرة لتعزيز هذه الاوضاع ،

غير ان هذه الجهود لم تكن وحيدة في الفعل والتأثير لذلك لم تتطور الاوضاع العربية فقط وفقا لارادة الدول المستعمرة ، وانما على العكس بدا واضحا ان الانكفاء الذي حصل للحركة القومية والاستكانة البادية للعيان في الروح العربية ماهي الا امور ظاهرية ومؤقتة ، وصحيح ان السنوات التي تلت الحرب كانت تبدو وكأن كل شيء انتهى ، الا ان الباحث الذي يعني بالتقاط الظواهر المضادة لارادة الاستعمار يستطيع ان ينظم هذه الظواهر ليقدم منها صورة لتطور جديد في الاوضاع ، ويرى بوضوح ان هذه الامة اليقظة التي تكالبت عليها قوى الشر مجتمعة تعيش حملا حقيقيا وان الآم المخاض بدأت فعلا .

التطورات الجديدة في الوضع العربي :

شهد منتصف العقد الثالث من القرن العشرين فشل ايدلوجية التجزئة بفشل تطور الانظمة التي اقامها الاستعمار الى انظمة مقبولة اجتماعيا ، ورافق فشلها فشل احزاب المرحلة ايضا في ان تكون البديل للانظمة وتحقيق حتى ذلك القدر الضئيل من الحقوق الذي مثلته معاهدات ١٩٣٦ في معظم اقطار الوطن العربي ، على العكس تأكد هذا الفشل كثيرا واصبح واقعا معاشا تعيشه الجماهير العربية بقيام الثورة الفلسطينية العظيمة لعام ١٩٣٦ التي تعدى اثرها حدود فلسطين ليلتقي مع النضج القومي في انحاء متعددة من الوطن العربي ، وابرزها العراق، فيصنع مدأقوميا يبدأ منمقتل بكرصدقي سنة١٩٣٧ الى ثورة مايس ١٩٤١ ، مدا عبّر عن نفسه في سعى القوميين في العراق الى توجيه نضال الامة العربية وتشكيل قيادة لمنظمة قومية تأخذ على عاتقها تنسيق التأجج القومي في سوريا ولبنان وفلسطين والكويت ومصر والعربية السعودية وليبيا[٣٠] ، فصارت قضية الوحدة من جديد حديث الجماهير وهدفها ، ولعل انعقاد موتمر بلودان ١٩٣٩ بحضور اكثر من خمسمائة مندوب من كل

٣٠ـ د . رجاء حسين حسني الخطاب : تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره في الحركة الوطنية . ص٢٤٧ .

الوطن العربي لتدارس مسألة الوحدة العربية وكيفية تحقيقها موشر على بداية نهاية فلسفة التجزئة ، عندما بدأ العرب تلمس الطريق القومي من جديد وفي مرحلة ما بين الحربين كان الوضع العربي يسير في ثلاث اتجاهات اساسية :

الاول ــ اتجاه مثلته الانظمة التي اوجدتها التجزئة وهي انظمة ملكية او مشيخات أو اقطار تحت الحماية لم تستطيع ان تتعايش مع شعوبها ،ولم تستطع ان تبتعد ولو قليلا عن اسار القيود التي ربطتها بها الدول الاستعمارية والتي تمثلت بمعاهدات واتفاقيات سياسية واقتصادية وعسكرية وثقافية ، فكانت حتى هذا الوقت غريبة عن الوسط الذي زرعت فيه بأستثناء اوقات ابتعادها عن حالة الرضا عن التبعية التي تعيشها الى حالة عدم الرضا حيث تقترب من الاوساط الاجتماعية •

الثاني ــ اتجاه مثلته الحركات السياسية التي ظهرت بعد التجزئة ونستطيع تضيفها الى مايلي :

١ ــ الاحزاب والحركات القطرية التي تنجت اما عن تشرذم حركات الاصلاح ذات التركيب الاجتماعي القومي في مرحلة ما قبل الحرب أو احزاب قطرية افرزتها التجزئة قوامها رجال سياسة شاهدوا تفتت البناء العام للامة تحت السيطرة العثمانية في الحرب الاولى فتكيفوا مع واقع التجزئة الذي اوجدته الحرب ، والطابع العام لهذا النوع من الاحزاب والحركات هو خلو برامجها من أي توجه قومي بل في اغلب الاحيان حملت برامجها افكارا اصلاحية بسيطة هي خلاصة ما استوعبته من حضارة اوربا ومفاهيمها عن الدساتير والاصلاح والبرلمانات ، بل واحيانا تأقلمت في حدود المشاكل القطرية التي اوجدتها التجزئة والاصلاحات الاجتماعية بحدود (التعليم والصحة والمنافع العامة) •

٢ ـ احزاب قومية مجردة ورثت عن مرحلة الوعي التي سبقت الحرب المفاهيم القومية العامة في اطار رؤيتها الضيقة ووعيها المحدود بالامة وتأريخها ، فأنطلقت بدعوتها من خلط بين الفكر الاصلاحي ذي الطابع الديني الذي كان في مرحلة الضمور في حقبة ما بعد الافغاني وبين الفكر القومي المنطلق من التجربة القومية لاوربا ويغلب على هذه الاحزاب طابع النشأة الانية اجابة لاحداث طارئة هزت الوجدان العربي : مثل حزب الاتحاد الدستوري في مصر سنة ١٩٢١ الذي اريد له ان يكون قاعدة العمل السياسي المستقبلي في سوريا ، واللجنة التنفيذية للموتمر القومي السوري ـ الفلسطيني ١٩٢١ ـ ١٩٢٧ ، التي اوجدتها الظروف المشتركة تحت الانتدابين الفرنسي والبريطاني ، وعصبة العمل القومي في سوريا التي ظهرت بسبب استمرار الانتداب الفرنسي على الحالة التي اسس عليها دونما تطور حقيقي باتجاه تمكين سوريا من ادارة نفسها كما حصل في العراق مثلا .

٣ ـ احزاب أممية تتجاوز في نظرتها الواقع القومي أما باتجاه ديني كحركة الاخوان المسلمين التي قامت على اساس الدعوة الى الامة الاسلامية في مصر وجمعيات الشبان المسلمين في سوريا والعراق التي تحولت فيما بعد الى قواعد لحركة الاخوان المسلمين ، واما باتجاه ماركسي يلغي القومية ويدعو الى تجاوز الوطن القومي الى التقاء بروليتاري عالمي ، وقد مثلت الاحزاب الشيوعية العربية والتنظيمات الماركسية هذا الاتجاه .

الثالث ـ اتجاه مثلته حركة تأجج قومي لها فكر قومي حاول التواصل مع الوعي العربي قبل الحرب والبحث عن صيغة للتخلص من ظاهرة الجمود ، تمثل في فكر الحصري ومحاولات ابن باديس وعلال الفاسي،

ولها قوة فعل حماسية عبرت عنها ثورة فلسطين الدائمة وحركة مايس ١٩٤١ في العراق وحركة عزيز علي المصري في مصر ١٩٤١ ايضا ٠

كانت هـذه هي الاوضـاع في وقت كان العـالم مقبـلا علـى الحرب العالمية الثانية ، والتحالفات الدولية تتبلور باتجـاه محوريين رئيسين كان لابد ان يحدثا فرزا داخليا في الوطن العربي ينسـحب على القوى السياسية العاملة فيه ، وقد اخذت التحالفات الدولية شكل حلفين يضم احدهما المانيا وايطاليا ثم اليابان فيما بعد ، والثاني يضم بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي ثم امريكا فيما بعد ٠

واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان لالمانيا معجبين بشعارات هتلر النازية وان لبريطانيا وفرنسا واميركا عملاءها من الانظمة العربية وللاتحـاد السوفياتي احزابه الشيوعية فالخاسر الوحيد في عملية الفرز داخل الوطن العربي هو الامة العربية فقد وقفت الاحزاب الشيوعية مع الانظمة التي اوجدتها الامبريالية ضد الحركة القومية وحاولت بكل السبل اضعافها واتهامها بالنازية ، فوقف الحزب الشيوعي السوري مع الانتداب الفرنسي[٣١] ، ووقف الحـزب الشيـوعي العراقي مع حكومة الوصي ونوري السعيد[٣٢] في فترة معينـة ، ووقفت الاحزاب اليسارية في المغرب العربي مع سلطات الاحتلال[٣٣] ، غير ان هذه الاتجاهات السلبية على خطورتها لم تحل دون التطورات الايجابية في الواقع العربي فعملية النمو المحدود التي تمخضت عنها عمليات متنوعة كأنتشار التعليم واتاحة فرصه اكثر من السابق وتشكيل الجيوش الوطنية ومساهمتها في نقل المدنية والافكار الجديدة الى اوساط بعيدة في المجتمع واندفاع الـدول الاستعمارية للقيام بمشاريع اقتصادية في المستعمرات والاقطار التي لازالت

٣١ـ سمير عبدالكريم : اضـواء على الحركـة الشيوعيـة في العراق ، ٣٥/١ نقلا جريدة الشرارة (العراق) العدد ٨ تموز ١٩٤١ ٠

٣٢ـ المصدر السابق

٣٣ـ شارل اندري جوليان : ص٤٨

تعيش الاستعمار ولو بشكل غير مباشر ، ولاسيما المشاريع المتعلقة بزراعة محاصيل جديدة ذات قيمة نقدية او استخراج البترول وما يستلزمه من ايد عاملـــة ووسائط نقـل وطـرق ، كلهـــا عوامـل اكسـبت حركـــة الوعي العربي مواقع جديدة مستفيدة من التخلخل في البناء العام للعلاقات الدولية المتمثل في التنافس والانقسام في المعسكر الامبريالي (دخول امريكا شريكا في المستعمرات مع بريطانيا وفرنسا خاصة اقتصاديا ، التنافس مع النازية على مناطق النفوذ ، وكذلك ظهور الحركة الشيوعية وزحفها من روسيا الى مناطق متعددة في العالم) .

لقد ادى تنامي الوعي وازدياد التوتر الدولي الى خلق فرص امام حركة القومية العربية لان تتقدم ولو قليلا لتحتل لها موقعا اقوى ان لم يكن في مجابهة اعداء الخارج ، ففي الاقل لمجابهة اعداء الداخل وتعزيز صمود الامة ايديولوجيا ضد التجزئـــة .

الفصل الرابع

انبعاث الامــة العربيــة

النهوض القومي

شهدت اواخر الاربعينات سقوط التجزئة متمثلة في فشل انظمتها والحركات السياسية التي ظهرت نتيجة لظروفها ، كما شهدت مأزق الحركة الشيوعية في الوطن العربي ، وشهدت اشتداد التنافس الدولي ، ويفترض ان تكون المعنية بهذه المؤشرات هي الامة العربية ، التي عاشت منذ ١٩٣٦ سنوات تأجج قومي قدر له ان يشهد ظهور حزب البعث العربي الاشتراكي ، فبعد التجزئة الاحتلالية لم يعد بمقدور المفكرين العرب من التجوال في الاقطار العربية ، ولاشك في ان سقوط تركيا رفع عن العرب استبدادا متخلفا وعنصريا لكن الاستبداد الاوربي ليس اقل منه ، الا ان الفرق الوحيد هو ان المفكرين في عهد الاستبداد العثماني كانوا يضطرون للهجرة فقد هاجر الكواكبي وعبد الله النديم الى مصر وابدعا فكرا قوميا رائعا غير ان هذا لم يعد ممكنا بعد التجزئة فالدول المحتلة كانت تشجعه ايام العثمانيين لانه يضعف خصمها ، وقد سقط الخصم فأنها لاتسمح به لـذلك اخذ المفكرون العرب يبذرون بذور فكرهم حيث ينشأوون وهكذا فعل الحصري وميشيل عفلق في بلاد الشام وهكذا فعل علال الفاسي وابن باديس في المغرب ، ومع ان النتيجة المفترضة لتعدد البؤر الفكرية هي ان يتبلور مناخ فكري عام ، الا ان الواقع الـذي حصل ليس كذلك فقد انعكست ظروف التجزئة على البؤر الجديدة ولم يفلح معظمها في المقاومة ولاسيما تلك التي لم تتوصل الى استكشاف دقيق للواقع التاريخي للامة العربية ولشكل التناقضات السائدة ، ولم توفّق في وضع اسس منهج جديد لشكل التعامل مـع الاحـداث غـير ان اتجاها مـن بين هـذه الاتجاهات قدر له تجاوز التجزئة هو الاتجاه الذي عبر عنه الاستاذ ميشيل عفلق .

يقول القائد المؤسس : « في اوائل الاربعينات كان هناك في نظرنا العرب واوربا وكانت فرنسا تحتل سوريا ولبنان واقطار المغرب العربي •• فلسطين كانت في اذهاننا دوما •• وكذلك الاقطار التي كانت تحت الاحتلال البريطاني واذا كان هنالك شيء اخر فهو شيء بعيد وباهت »[1] غير ان هذا البعيد الباهت سرعان مااصبح حقيقة قريبة قائمة في الواقع العربي ، تعيش في ذهن اخطر شرائح الامة العربية ، هم الشباب •

في هذا الوضع ولد الفكر البعثي ، ولد وهو يرى : —

— التجزئة التي زرعتها اوربا الاستعمارية •

— الشيوعية المتحالفة مع اوربا الاستعمارية في اخطر قضية هي معاداة القومية العربية •

— والوعي العربي المحدود الذي لايحمل الا الشيء البعيد الباهت فكان لابد من بحث عن حل ، والاختيار بين ايدلوجيات العصر ، ولكن هذه الرؤية حددت مبدئياً الحل في رفض لعناصر الوضع جميعها والعودة الى الذات ، وكانت العودة الى الذات تعني :

— الغوص في الماضي والبحث عن الرسالة العربية وعن الصورة الذهنية والاخلاقية والنفسية للامة التي انتجت تلك الرسالة واستكشاف الروح التي حملتها عبر التاريخ •

— دراسة الخلفية التاريخية واستكشاف جوهر الحركة التاريخية الذي اعطى الرسالة العربية امكانية التحقق عبر التاريخ وفي اعلى مراحلها (الاسلام) •

---

١ — ميشيل عفلق : البعث والتراث (دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ١٩٧٦) ص٧٧ — ٧٨ •

- رؤية علمية للواقع العربي تستكشف جوهر تناقضاته وتحدد حاجاته الحقيقة .
- التعبير الصادق عن حركية الامة ومفاهيمها الجوهرية والبحث عن صيغ تأمين هذه الحركية واستمرارها .

لقد تلخصت هذه المعاني جميعا في تأكيد الظاهرة (القومية) اولا ثم في اعطائها (مضمونها الاجتماعي) ثانيا وابراز طابعها (الحركي الثوري) ثالثا .

فالقومية العربية ليست تلك الافكار الغائمة الباحثة عن هوية في حدود الشروط الابتدائية التي ابتكرها الفكر الاوربي لتحديد القومية وانما في القدرة على اكتشاف الهوية القومية ذاتها وتقرير الانتماء اليها فالقومية حقيقة تاريخية حية في حياة الامم « ترافق تطورها التاريخي وتتجدد مع تجددها معبرة عن حاجاتها في شكل نظرية قومية » وهي في تجددها ذات طبيعة حركية ثورية تنجزها « اداة ثورية منظمة » تجسد القومية في فكرها وسلكوها بتحقيق « الانقلاب » .

فالحزب بهذا الطرح يعني عمليا انه اختط طريق الثورة القومية الاشتراكية معبرا عن استيعاب الامور الجوهرية الثلاثة التالية :-

١ - الواقع العربي بكل ظروفه الموضوعية وتناقضاته وحاجاته .

٢ - الخلفية التاريخية والحضارية للامة العربية واستكشاف رسالتها عبر التاريخ والتواصل معها .

٣ - روح العصر والتجدد المستمر للعلم وكيفية استخدامه في عصرنة الرسالة العربية الخالدة .

لذلك مثلت مهمة (بعث الامة العربية) التي اختطها الحزب لنفسه ثورة في طريق الاختيار ففي « بعث الامة » تلتقي بحوارية رائعة الخصوصية القومية للامة ، ببعديها القومي - والانساني ، مع المعاصرة .

اهمية الاختيار البعثي :

يكتسب حزب البعث العربي الاشتراكي اهميته من حيث كونه ايدلوجية مستقلة غير ان اهميته لاتقتصر على هذا الجانب حسب وانما في القيمة السياسية والتأريخية ايضا ، فهذا الاختيار يأتي في ظروف استعداد القوى الكبرى للحرب وقدرتها المعبأة ايدلوجيا ودعائيا اضافة الى مظاهر القوة التقليدية ، لذلك كان للاختيار البعثي لطريق الثورة القومية الاشتراكية اهميته على النطاقين العربي والعالمي .

عربيـــــا :

لان تحديد مهمة البعث على هذا النحـــو (بعث الامة العربية) يعني الافتراق عن مستويات الوعي الاجتماعي السائد في الواقع العربي بشكلـــه السطحي التقليدي الموروث عن مرحلة ماقبل الحرب . وعدم الاكتفاء بحدود المطالبة والتغني ، والانتقال الى مرحلة التمثل والثورة ، والافتراق ايضا عن اشكال العمل السياسي المعبر عن ذلك الوعي بصيغة الهبات الحماسية ، بالتوجه الى الممارسة العلمية الثورية بروح من العقل والايمان والعمل الصبور ، كذلك الافتراق عن اشكال العمل السياسي المعروفـــة في الساحـــة العربيـــة سواء منها الاحزاب القطرية التي افرزتها مرحلة التجزئة او الاحزاب القومية المنكفئة في حدود وعيها السطحي والمجرد المعزول عن العصر الفاقد القدرة على التواصل مع تقدم العلم ، وعن الاحزاب الاممية الدينية او الماركسية التي تفقد الانسان هوية الانتماء القومي وتسحبه في اممية غائمة عامة ، ليست مرتبطة بشيء ، ولا لها حدود .

وعالميـــــا :

لان اختيار البعث لطريق الثورة القومية الاشتراكية يؤشر دلالتين : الاولى ــ للشعوب المستضعفة والمحتلة التي ادت عملية الاحتلال لان تفرض عليها التبعية الايديولوجية لواحدة من الايدلوجيات المعاصرة المرتبطة بالقوى الكبرى ، او تلك الشعوب التي اجبرت على التبعية الايديولوجية نتيجـــة

اوضاعها المتخلفة ، او بسبب ضعف قدرتها على اختيار طريق خاص ، ويمكننا القول بأن شعوب العالم الثالث والكثير من شعوب اوربا وامريكا تعاني من نتائج هذا القهر الايدلوجي والحضاري ، لان معظم مفكري هذه الشعوب التي تنتمي الى حضارات قديمة تأريخيا يعيشون حالة من القلق ويتوزعهم الهوى بين الرغبة في بناء تأريخ جديد لبلادهم على النموذج الاوربي ، وبين رغبة الاعتزاز بأصالة لايمكن ان تنطبق عليها المقولات الاوربية فالخيار البعثي عزز البناء النفسي لهذه الشعوب بقدرتها على ان تقدم اصالتها بنظرة معاصرة ليس بالضرورة تنسجم مع اوربا انما المهم انها تحفظ الاصالة القومية والحضارية وتواكب التقدم •

الثانية ـ للايديولوجيات الكبرى المرتكزة الى مصدرى القوة في العالم « الرأسمالية والشيوعية » التي احتكرت تصنيف العالم ايدلوجيا فأصبحت الان تواجه تصنيفا حاولت ان تحول دون ظهوره ونموه ، لكي تعي ان فرضياتها في ذلك التصنيف كانت خاطئة لاسباب متعددة ، في مقدمتها ان حيوية الامم لاتتوقف ، وان الامة الاصيلة ترفض الغاء هويتها وبأمكانها ان تنتهج الطريق الذي يخدم مصالحها القومية اولا بغض النظر عن الفرق في المساحة والسكان وانطلاقا من مبدأ السيادة القومية ، ومنها ايضا ، ان مزية العلم الجوهرية استمراره وبالتالي فأية فرضية ايا كان نوعها توضع يوما ما على اساس مستوى معين من التقدم العلمي ليست بالضرورة ذات صفة ازلية فالاجتهاد مفتوح واذا كانت هناك قدرة على استخلاص النتائج والدروس فبالتأكيد ليست هناك امكانية تعميم تلك النتائج ، واحتواء المستقبل وبضمنه التقدم العملي ، فمثل هذا يعني علميا الوقوف ضد تقدم العلم وهو امر غير ممكن •

من هنا كان طبيعيا ان يترتب على الاختيار البعثي ان يكون متناقضا مع حركة الاستعمار ومع الشيوعية ومع الغاء الشخصية القومية للامة العربية الذي اتفقا فيه رغم اختلافهما في كل شيء ، ومثل هذا التناقض لايكون جوهره

الا تناقضا بين نمطين حضاريين : نمط حضاري عربي ونمط حضاري اوربي ، وان اية رؤية للتناقض بيننا وبين المرحلة عالميا وعربيا تبتعد عن هذا الاطار تبقى رؤيــة ناقصة والبحث فيه يستوجب الوقوف على جذوره •

البعث والعداء متعدد الاطـراف

اكتسب نشوء حزب البعث العربي الاشتراكي تاريخية تجسدت في امور جوهرية لعل ابرزها طرح فكرة القومية العربية طرحا ثوريا اشتراكيـــا والانتقال بها من وضعها العفوي الى حركة تمتلك اداة ثورية منظمة ذات هدف ستراتيجي ، لذلك لم تعد هذه التطورات الايجابية التي ايقضت الروح العربية لتسمح ببقاء العداء التقليدي القائم ، وانما فرضت تطورا في اساليب العداء الامبريالي ، فحتى ظهور البعث كان الاستعمار يرى في ردود الفعل العربية اموراً لاتهدد جوهر وجوده لانها اصلا لم تكن ذات فاعلية حقيقية ، بعد عملية التغريب التي مورست في الانسان العربي وجعلته حتى في معارضته او رفضه يقف ضمن السياق العام الذي لايشكل خطرا ، لذلك عندما ظهر الحزب وشكل اهمية خاصة وجسد امورا جوهرية غير مألوفــة في الواقع العربي يرفضها الاستعمار فرض ذلك بالضرورة تطورا في شكل العداء ، فحزب البعث العربي الاشتراكي بعقيدته القومية والاشتراكية تعبير عن تواصل الروح العربية عبــر التأريخ ومن ثم فهو نزوعها الى المستقبل ، وفعلهـا المقتـدر الــى امـام ، وهذا التعبير يناقض الجهود العدوانية التي انصبت على الادعاء بأن الروح العربية قد انتهت ، والرسالة العربية لم تعد موجودة ، والنزوع القومي الى المستقبل اقرب الى الوهم •

وحزب البعث العربي الاشتراكي في عقيدته وصياغته لعملية التحقق القومي تعبير عن حضارية الامة العربية وصورة فعلهـا الحضـاري ، وعندما يطرح البعث فكرة القومية العربية ببعديها الاجتماعي والثوري فأنه ينزع الى تكوين موقف فكري شمولي متحرر من الغيبيات التي زرعها الاستعمار ، ومن

الاستسلام للنظريات موشرا حقبة حضارية جديدة للعلاقات البشرية فهو اذن ايذان بنهاية حضارة القيم المادية المجردة ، حضارة السيطرة والتسلط والظلم الاجتماعي .

وهو ايضا تأصيل للموقف القومي الانساني القائم على الحرية والمساواة والعدل مما يتيح المجال لتكوين سليم للامم المستعبدة ويهيىء لظهور ايدلوجيات النظرة الجديدة الى الحياة بمواجهة ايدلوجية الغرب الرأسمالي التي تقتل الايدلوجيات الجديدة بالقهر المادي وايدلوجية الغرب الشيوعي التي تقتل الايدلوجيات الجديدة بالارهاب العقائدي ، واغلاق باب التقدم العلمي والفكري .

وهو ايضا بتأكيده جوهر المفاهيم الاجتماعية للقضايا الكبرى « الدين والقومية » انما يسقط الحجج والذرائع التي يتستر بها انصار الايدلوجيات التي اشرنا اليها ويتيح المجال امام تكون عقلية جديدة متحررة غير متحجرة ، عميقة الوعي غير قابلة للانسياق ترفض الاستسلام ، في الوقت الذي تنفتح على الانسانية في التفاعل .

لهذه الاسباب شهد حزب البعث العربي الاشتراكي عداء واسع النطاق على المستويين العربي والعالمي ، حتى ان هذه الاطراف التي لم تخف ضيقها بالحزب ، لم تخف اشتراكها في الموقف المعادي رغم تناقضاتها .

فعلى المستوى العربي وقف ضد الحزب كل اولئك الذين افرزتهم مرحلة التجزئة من سياسيين واحزاب وحركات ، واولئك الذين عجزوا عن مجابهة التجزئة فطأطأوا رؤوسهم لها ، وايضا اولئك الذين ارتبطوا بأيدلوجيات دولية كبرى ، فقد واجه البعثيون الاول ممارسات الاحباط ايام النشأة الاولى مارسها العاجزون ورجال الاحزاب التقليدية والوسط السياسي ، بدء من السخرية والاستهزاء بهؤلاء الصبية الذين يريدون ان يطالوا القمر واقدامهم على الارض ، الى الاستهزاء بالمبادىء وبالمثالية التي تتمسك بأمور لم تعد ممكنة التحقيق . !

ثم واجه الحزب موقف الاحزاب اليمينية او تلك التي اوجدتها المرحلة الاستعمارية كالاخوان المسلمين والقوميين السوريين ، ثم واجه هجوم الاحزاب الشيوعية فكانت الاحزاب اليمينية تصف الحزب بأنه يمالىء الشيوعية الكفر والالحاد ، بينما كانت الاحزاب الشيوعية ولا زالت تعد الحزب حزبا قوميا يمينيا وبرجوازيا الى اخر ما عندها من نعوت ، وقد تطورت مواقف العداء من الهجوم الكلامي او أصدار المنشورات المضادة الى استخدام العنف لايقاف المد الشعبي لمبادىء الحزب ، وقد تسلمت الانظمة العربية الدور عندما تصدت للبؤر الثورية للحزب تطوقها وتحاول فرض العزلة عليها وتستخدم كل الصيغ في هدمها بالضرب من الخارج او بتصيد المناضلين واسقاطهم .

اما على المستوى الدولي ، فقد تصدت للحزب كل القوى الكبرى في عملية المجابهة داخل الوطن العربي وخارجه ، لقد نشط الامبرياليون في المجابهة اولا وذلك بالاستمرار في العمل المضاد للامة العربية ، ولانهم كانوا يعتقدون انهم رتبوا الاوضاع بالشكل الذي لايهددهم فقد اعتقدوا ان الانتقال من مستوى في العمل المضاد للامة الى مستوى اخر كفيل بأمتصاص المواقف الجديدة للامة ليس بالنسبة الى الحزب حسب بل للوعي القومي عامة ، فالاستمرار في تمكين الصهيونية العالمية من فلسطين وجر العرب للاحلاف العسكرية العدوانية وتشجيع الانظمة العميلة على احتواء الاقطار التي تشهد تحولات في الوعي كلها كانت صيغا واساليب في المجابهة اول الامر ، غير ان هذا لم يعد كافيا بعد ان انتشر الحزب في الوطن العربي وبدأ يوجه الاحداث في المنطقة ، كما حصل في وحدة مصر وسوريا ، وثورة تموز في العراق والمجابهة القومية في اليمن والسودان ، ثم تسلم السلطة في العراق وسوريا ١٩٦٣ ، هنا اتجه المعسكر الامبريالي الى المجابهة العلنية مع الحزب ، فأسقاط سلطة الحزب في العراق ١٩٦٣ واحتواء السلطة في سوريا وافراغها من جوهرها الثوري ، كانت تعبيرا عن مواقف المعسكر الرجعي من الحزب ، مضافا اليها تحريك المرتبطين بالاستعمار عن طريق الصاق تهمة الالحاد بالحزب واتهامه بمحاكاة الشيوعية الدولية .

اما على مستوى المعسكر الشيوعي فالامر كان مختلفا كثيرا ، مختلفا من ناحيتنا ومـن ناحيتهم ، فنحن بالرغم من كل التناقضـات مع الاحزاب الشيوعية في الافكار والممارسات ، ورغم التناقض الايدلوجي مع الماركسية وتجربتها (الاتحاد السوفياتي) كنا ننظر اليهم نظرة لاتضعهم في مستوى واحد مع الرأسمالية لذلك فالنظر الى كل مظاهر الخلاف تأتي ضمن هذا السياق ، غير ان ثمة متغيرات دولية تتعلق بحدة التنافس الاستعماري على المصالح ، الذي صاحبته عملية نمو في وسائل التدمير الستراتيجية مضافا اليها متغيرات في الواقع العربي وقضايا النضال القومي اخذت تفرض على الشيوعية الدولية اتجاهات جديدة في السياسة الدولية ، لعل ابرزها بروز النظرة السياسية الى العالم المنطلقة من رؤية خاصة محددة بالمصالح الحيوية لدولة الاتحاد السوفياتي ومن هنا بدأت مواقف الاتحاد السوفياتي ومعها مواقف الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي تنحو منحى يبتعد عن الشكل الذي ارسـي للعلاقات العربية السوفياتية ومن ثم ماعاد ممكنا النظر الى هذه العلاقات الا من منظار التنافس الايدلوجي ، غير اننا ينبغي ونحن ننظر اليها نظرة ايدلوجية ان نعي ان التنافس الايدلوجي ليس بين الماركسية والقومية العربية انما بين نمطين حضاريين تعبر كل من تلك الايدلوجتيين عن واحد منهما فأيدلوجيـة القومية العربية تنتمي الى نمط حضاري يختلف عن ذلك النمط الذي تنتمي اليه الماركسية ، بعد هذا يصبح الحديث قائماً عن التناقضات مع الماركسيـة لكونها ايدلوجية تختلف عن الايدلوجية الرأسمالية ، بأختلافات كثيرة وجذرية رغم تفرعهما معـا عن الفكر الاوربي ، وبالنسبة الينا كان للشيوعية مأزقان الاول بسبب النشأة فهي ايديولوجية اوربية ، والثاني بسبب نشأة احزابها في الوطن العربي فهي ايضا احزاب نشأت في اوساط الاقليات القومية والطوائف الدينية ولذلك لم تستطع وقد نشأت في بيئة وظروف جزئية ان تكون قادرة على فهم شروط الثورة والتغيير في الوطن العربي ، ولم تستطع تجاوز حدود العلاقات التي اوجدها الاستعمار الرأسمالي في صفوف الاقليات .

العداء الراسمالي :

لاحظنا في عرضنا السابق ان العداء الاوربي ركز اول الامر على عداء المفاهيم الخاصة بالعرب فأتجه الى هدمها واقعا تأريخيا واجتماعيا معاشا (الامة العربية ــ الحضارة ــ الاسلام) فأوربا القومية كانت تعيش مرحلة زهو وفخر بتجربتها القومية التي تطورت الى تلك المرحلة من النضـــج فيما بين ١٧١٥ و ١٩٥٥[٢] ، ورافق تطورها ظهور النهضة الصناعية وبدء حركة الاستعمار بشكلها المعاصر ، لذلك كانت رؤيتها للعالم منطلقة من مسألتين جوهريتين :

الأولى ــ تاريخ تجربتها الذي شكل كل وعيها ورؤيتها للعالم •

الثانية ــ مصالحها الموجودة في انحاء اخرى من العالم التي لاتستطيع التخلي عنها •

لذلك لم تستطيع اوربا والا تجربتها الا ان تكون ليس بنت نمط حضاري مادي فقط ، وانما تجربة في الاستعلاء والسيطرة والاعتقاد بأن الله خلق العنصر الانجلو ــ سكسوني لتحضير العالم[٣] ، فهم يعدون عصر القوميات بدأ يوم امكن التغلب على دويلات المدن لصالح الحكومات المركزية في القرن السابع عشر لكنهم ينكرون ظهور القومية العربية يوم استطاع سرجون الاكـــدي التغلب على دويلات المدن واقامة دولة مركزية في حدود (٢٥٠٠) قبل الميـــلاد ويصرون على انكارها يوم استطاع الرسول القائد ان يوحد الوطن العربي والامة العربية في القرن السابع الميلادي ، وهذا الموقف طبيعي من وجهة نظر

---

٢ ــ شيفر بويد . القومية عرض وتحليل . ترجمة د. جعفر خصبـــاك وعدنان الحميري (دار مكتبة الحياة ، بيروت ، مؤسسة فرانكلـــين ١٩٦٦) يراجع القسمان الثالث والرابع حيث يتحدث المؤلف عن عصر القوميات في اوربا .

٣ ــ كلود جوليان : الامبراطورية الامريكية : ٦٣ وضع المبشر البروتستانتـــي جوزيا سترونغ عام ١٨٨٦ كتابا طبع عدة مرات للتبشـــير بهذا الشعار .

اوربا ، فهي وان قرأت التاريخ الا ان مصالحها تجعلها ترفض التعلم منه او الاقرار بما فيه ، فالتجربة القومية في اوربا كانت تبحث عن التجدد المستمر من اجل البقاء لأنها قامت على اضطهاد الشعوب فبقدر اضطهاد الشعوب ، تستمر التجربة القومية ، وقد عبرت اوربا عن استعداد مثالي لحمل رسالة الاضطهاد عبر شعارات الغطرسة والاستعلاء « حضارة الرجل الابيض » « رسالة فرنسا » « المانيا فوق الجميع » وبعد العبور الى اميركا اصبحت فرصة قيام تجربة قومية على النمط الاوربي غير ممكنة ، فالذين عبروا ينتمون الى كيانات قومية ولهم لغاتهم وثقافاتهم ، وبسبب صلاتهم مع الوطن الام كانت لهم مصالح خاصة ايضا وهذه هي مقومات القومية في اوربا ، لذلك ومن اجل استمرار التجربة القومية كان لابد لاوربي اميركا من ايجاد نمط احتوائي جديد يشكل ملامح تجربة قومية جديدة ، في اول الامر نجح التحدي الداخلي الذي مثله سكان اميركا الاصليون وحضاراتهم القديمة ودياناتهم في توحيد المهاجرين الاوربيين ، ورافقته عملية احتواء ثقافي وصلت الى حد التزوير للحقائق التأريخية من أجل فرض الاهداف الايدلوجية وانجاز عملية الاحتواء ، وانضافت لهذا العامل عوامل الدور الاميركي في الحربين العالميتين كتحد خارجي ، ثم في المجابهة المستمرة مع الاتحاد السوفياتي ، غير ان المنظرين الاميركان يعرفون ان التجربة التي يريدونها لم تعط النتائج المتوقعة ، وان الوحدة الظاهرية هي نتاج عملية الشد المستمر لسكان الولايات المتحدة وان الخطر كل الخطر لو انتهت عملية الشد ، فأن ابرز نتائجها سيكون انهيار الحلم بأميركا والحدة ، ومن هنا اصبحت رسالة الحكومات الامريكية التبشير برسالة اميركا التي حددها روزفلت بقوله : « ان قدرنا هو امركة العالم »[٤] ، اي استمرار الضرب بالخارج ، واستمرار الشد الداخلي نحو عملية الضرب ، والواقع ان التأريخ الامريكي المعاصر هو تأريخ الضرب في الخارج في اميركا اللاتينية في فيتنام في الوطن العربي حيث تضرب حركة

---

٤ ــ كلود جوليان : الامبراطورية الامريكية ، ص ٦٧ .

القومية العربية وحيث تحرص اميركا على استمرار الذبح القومي في فلسطين •

وجاء التركيز الاوربي في حرب المفاهيم على اساس ان العرب ليسوا امة انما هم مجرد بدو في طور التمدن اما سكان المدن فهم خليط من الاتراك والمماليك وبقايا الحضارات القديمة كالاشوريين والفينقيين والفراعنة والبربر ، وان هذه الاقوام الخليطة وجدت لها مايطمئنها في الاسلام دينا تتوفر فيه خاصية روحية وجدت استجابة في نفوس ابناء هذه الاقوام ، اذن ليس هناك تأريخ يمكن ان يكون خلفية لقومية لانه ليست هناك امة لها تأريخ ، ان التدقيق في هذه المقولات في الواقع لايعبر عن الواقع التاريخي ولايتفق مع منطق التأريخ انها محاولة اوربية لفرض تصورات ومناهج اوربية امريكية على الواقع العربي بحيث يصل الذي يعتنقها الى نتيجة مغلوطة في كل الاحوال وهي الهدف من وراء هذا الجهد الثقافي والا هل الامة العربية غير موجودة تاريخيا حقا ؟ وان تلك الشعوب التي صنعت فجر الحضارة وتكاملها في الوطن العربي ليست ذات صلة او خاصية قومية ؟ كيف اذن ارتضت ان تعتنق المنطلقات نفسها وتتبنى الصيغ عينها وتعمل ضمن النمط الحضاري ذاته ؟ انها بالتأكيد وكما يؤكد منطق علم الاجتماع لم تكن شعوبا ساكنة بفعل حركتها الواضحة فهي اذن حيوية على قدر كبير جدا بقياس عصرها وهذه الحيوية يفترض ان لها رؤيتها ومنطلقاتها وحقائقها ، ان اشتراك كل تلك الاجيال في ذات الخصائص العامة والجوهرية يدحض الرأي الاوربي عنها فقد قبلت العمل بتلك الخصائص والسمات لانها تنتمي لها والا لِـمَ لم يقبل اليونان والرومان النصرانية الا بعد ان كيفها بطرس وبولص؟ ثم لِـمَ عادت اسبانيا مسيحية بعد حكم ثمانية قرون من العروبة والاسلام ؟ الجواب هو ذاته الذي يحكي صمود الامة العربية واستمرارها رغم اكثر من سبعة قرون من الاحتلال والعداء المتنوع الصيغ المتعدد الاطراف ، عاشته الامة العربية منذ سقوط بغداد في القرن السابع الهجري ، والى الان •

ان هذا الاستنتاج يكون صالحا للخروج بنتيجة جوهرية ان العرب تكونوا امة منذ قرون عديدة سبقت تطور اوربا وان مزيــة الامة العربية انهــا تمتلك كلا النوعين من مقومات التكون الذاتي (المقومات القومية التقليدية) والانساني (المقومات المبتكرة للتجدد القومي) فهي لها لغتها ولها تاريخها ولها عاداتها وتقاليدها ولها ايضا وعاء انساني اكبر للحركة وقدرة على ابتكار عقائد ذات جوهر قومي وهدف انساني ، لها قدرة على استقطاب تناقضات وحاجات الشعوب في بناء ايدلوجي شامل وفاعليــة على التغيير والتجدد .

لقد وقع الغرب اسير ادانة نفسه عندما حاول التعامي عن فهم حقائق الواقع العربي ومكوناته ، فالغرب الاوربي يعد القومية العربية ظاهــــرة سايكولوجية وهي بنت الواقع الاوربي فهي عملية نقل للتفتح الاوربي مارسها العرب ، غير ان العرب ، طبقا لاراء اولئك لم يجيدوا النقل ففي حــين كانت القومية في اوربا ليبرالية انسانية نقل العرب القومية وشوهوها فأصبحت عندهم شمولية تعصبية[٥] ، وواضح من هذا ان اوربا ترى في تكوينها من عدة امم ومن ثم تعدد كياناتها القومية نصا يجب تقليده في كل مكان فالعرب لكي يكونوا انسانيين يجب ان يصبحوا عدة قوميات ، وهكــذا فالتعصب للوحدة القومية تعصب قومي مرفوض في اوربا ، وبهذا التناقض بين القومية الواحدة وتعدد القوميات في اوربا نصل الى تناقض اخر هو النظرة الكونية الشمولية عند العرب والتعددية عند اوربا اي عمليا الحرص على الانتماء الى بناء عام انساني يقابله في اوربا التزام بالمصالح التفصيلية للكيانات القومية في اوربا ورفض هذا الانتماء الانساني لما يترتب عليه من نمط حضاري .

---

٥ ـ مقتبس مــن بحث د. بزرجان في نقد كتابات لاكور وهاليرن عن القوميــة العربية انظر قضايا عربية ، العدد ٩ ، ١٩٧٥ ، بيروت ، ص١٥١ .

العداء الشيوعي :

لانعني بالشيوعية في هذا البحث « الماركسية » اطلاقا مع الوعي بأن الشيوعية ارتكزت على الماركسية اصلا ، وانطلقت منها كما ان الماركسية هي نتاج اوربا وانها تفاعلت مع تاريخها وتطورها وارتكزت الى ابرز مساهماتها الفكرية في التكون ، فالماركسية تتحكم فيها مسائل جوهريـــة :

الاولى ــ انها ناتجة عن قراءة لتاريخ اوربا الداخلي فماركس وانجلز توفرا على قراءة تاريخ اوربا وتتبعه غير انهما لم يتوفرا للاطلاع على تأريخ العالم الا بقدر حاجتهم لفهم تاريخ اوربا ، لذلك لم تستطيــــع الماركسية الا ان تكون سلبية ازاء اية ظاهرة انتجها تاريخ اخر خارج اوربا هنا يجدر بنا ان نشير الى المأزق نفسه في الرأسمالية •

الثانية ــ انها اعتمدت على حالة وعي اوربي للتطور في العالم محكومة بتاريخ اوربا فمصادر الماركسية الثلاثة (الفلسفة الالمانية ــ والاقتصاد البريطاني ــ والاشتراكية الفرنسية) ، غير انها عممت نتائجها على تأريــخ العالم فابتدأت اصلا بعملية تحجيم حضــاري للعالــم خارج اوربا •

الثالثة ــ ان الماركسية طبقت في روسيا من هنا نشأ اعتقاد انها صالحة للتطبيق في اية بيئة اخرى ، وقد بقيت الاحزاب الشيوعية ترى هذا الرأي حتى بعد ان جاء التطبيق الصيني للماركسية مغايرا للنمط الروسي ومع ان لينين يؤكد ان من « لايعير اهتماما للشروط التي تبدلت منذ ذلك الحين (النصف الثاني مــن القرن التاسع عشر) ومــن يدافع عن حلول الماركسية التي تقادم عليها العهد فأنه يكون وفيــا لحرف المذهب لالروحة ويكون قد ردد عن ظهر قلب الاستنتاجات القديمة ، من دون ان يستخدم منهج البحث الماركسي في تحليل

وضع سياسي جديد »[٦] فأن منظري الاحزاب الشيوعية يصمون اذانهم عن اي حقيقة تخالف المقولات القديمة حتى وهم يرون التناقض القومي يؤدي دوره في تفتيت المعسكر الاشتراكي .

يضاف الى هذا المأزق الماركسي مأزق الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي واحساسها بالغربة عن الوسط القومي العربي نتيجة انتشارها بين الاقليات القومية والدينية فأديا معا الى مأزق الماركسية ومأزق الحركة القومية العربية ولشكل العلاقة بين مركزين كلاهما يفترض فيه انه مركز تحرر وثورة حتى مع معرفة موقف الماركسية ثم الشيوعية من القضية القومية ، ومع الوعي بهذا الموقف الفكري وبأول ممارسة له (الوقوف ضد قضية الشعب العربي في فلسطين عام ١٩٤٨) فأن حركة القومية العربية بقيت على تصورها بأمكان التفاهم ، الا ان تطور الاوضاع الدولية جاء عكس هذا التصور ففي عالم تتجاذبه المصالح الدولية تصبح امكانية تحكم المبادىء بالسياسة مسألة مشكوكا فيها ، ولاسيما عندما يكون هناك تناقض حضاري جوهري يمكن ان يفرض نفسه عبر التطور التأريخي ، وهذا هو بالتحديد الذي حصل اذ بالرغم من الطابع الثوري التقدمي في الماركسية فأنها وتجربتها الشيوعية كانتا نتاج اوربا فما كان ممكنا الا ان تكونا كذلك .

بدأ المأزق الشيوعي عندما وقف الاتحاد السوفياتي مع قرار التقسيم ، ويومها انطلقت الاحزاب الشيوعية العربية تطبل للقرار ، وتنظّر له وتمنح الصهاينة من مقومات الامة والامر الواقع ما يبرر ذلك ، لكنها نسيت انها بالمقابل جردت العرب من تلك المقومات مبررة ذلك بأن نضج الموقف الطبقي في المهاجرين الصهاينة اكثر منه في العرب وان اسرائيل بالامكان ان تتحول الى عامل اخصاب شيوعي ، مثل هذا الموقف نابع من تخطيط سابق فمنذ ان نشطت الصهيونية العالمية في التهجير الى فلسطين اخذت روسيا تدفع بمجاميع

---

٦ ــ لينن نصوص حول المسألة القومية ترجمة جورج طرابيشي (دار الطليعة ١٩٧٢) ص١٠ .

من اليهود الشيوعيين للهجرة ، ومثل هذا التصرف يؤكد مرة اخرى الجوهر المشترك لاوربا رغم الفروق البارزة ، فالشيوعية لاتصدر مبادىء انما تصدر مبشرين بالمبادىء حتى وان كانوا عدوانيين ، لقد اتبعت روسيا نفس صيغة المبشرين بالمسيحية الذين وفدوا مع حركة الاستعمار مع اختلاف الهوية الايدلوجية ومن هنا كانت ترى امكان تحول البؤرة الصهيونية الى مضّيف وبالتالي عامل اخصاب ويبرر النظريون السوفيت ذلك بأن اعتراف الاتحاد السوفياتي بحق تقرير المصير للصهاينة وتصويته عليه لاعلاقة له بتنفيذ مخطط استعماري يرمي لاقامة كيان عنصري صهيوني[٧] ، ولكن الا يرى المنظرون السوفيات انهم تجاهلوا شعب فلسطين ؟ وحتى بعد ان اعترفوا به قيدوه بشرط عدم ازالة الكيان الصهيوني لانه أصبح واقعا ، فالمنظرون السوفيات يعترفون بالاحتلال واقعا مقبولا لانهم يؤمنون بزرع البؤر الاحتلالية، فكما يقول لينين (الاعتراف غير المشروط بالنضال من اجل حرية تقرير المصير لايلزمنا البتة بتأييد اي مطلب كان من مطالب تقرير المصير القومي فالمهمة الايجابية والرئيسة التي تأخذها الاشتراكية ــ الديمقراطية على عاتقها بوصفها حزب البروليتاريا هي العمل على حرية تقرير المصير لبروليتاريا كل قومية لا للشعوب والامم)[٨] وبما ان هذه البروليتاريا مرتبطة بالاتحاد السوفياتي فهي بؤره الاحتلالية وهو يعطيها حق تقرير المصير لانه يعرف النتائج سابقا وهي كيفما كانت فلن تكون قومية .

ان الموقف الشيوعي من القومية العربية لايكمن في انها لاتختلف عن القوميات في اوربا ، وانما لان الشيوعية لاتعترف بالامة العربية فهي غير موجودة اصلا ، وحتى اذا اقرت بها فهي في طور التكون وان هذا التكون مستمر ولابد له من عشرات السنين[٩] وحتى مع هذا القدر من الاعتراف

---

٧ ــ وثيقة العلماء السوفيت ، مركز البحوث والمعلومات ، بغداد ، ص٢٠ .
٨ ــ نصوص حول المسألة القومية ، ص١٠ .
٩ ــ وثيقة العلماء السوفيت ، ص١٠ .

الشيوعي بالامة فالشيوعيون لايريدون لهذا التكون ان يتم لذلك فسياستهم تنصب على تشجيع الاتجاهات المضادة لفكرة الامة الواحـدة ، حتـى تلك الاتجاهات المعاكسة التي تقويها او تعمل لها الاقطاعيـة البرجـوازية[10] ، فالمنظرون الشيوعيون يبررون الالتقاء مع ايدلوجية الامبرياليـة والاعـداء التقليديين للامة ، فهم مع معرفتهم بما حققه الواقع الاستعماري من تحويل هذه الامة الى دول[11] ، فهم مع التجزئة لانها من منطلقهم واقع لامفر منه اما ان يكون الواقع ناتجا عن عوامل طبيعية او مصطنعة فهذا ليس مهما طالما ان الالتقاء يكون بالشكل الذي يخدم الهدف الشيوعـي ، فالموقف النظـري والسياسة المنطلقة منه لدى المنظرين الشيوعيين امور مقبولة حتى وان ارتكزت على اساس امبريالي ، وهذا يحدد دور الشيوعيين في الوطـن العربـي الذي هـو ليـس النضـال ضـد افراز المرحلـة الاستعمـارية وانمـا اقصـاء الاستعمـار الرأسمالي والابقـاء علـى نتائجـه فالغـرض مـن عمليـة الاقصـاء هنا خدمة الهدف الشيوعي وليس حركة القوميـة العربية، فنضال الشيوعيين يجب ان يتجه الى اجتثاث اية عبارة ذات مدلول قومي مـن ادبياتهم وان جانبا اخر من نضالهم يجب ان يتجه الى اقرار الواقع الاستعماري وتنظيره فهذه التجزئة هي دول تكونت خلال قرون ليس ذلك ذنب احد بل سيادة العثمانيين خلال قرون ، ثم سيطرة الاستعمار ، كل ذلك ادى الى تحول العرب الى شعوب وكل شعب يعيش في دولة[12] ، اما ان يتناقض هذا الواقع الاستعماري مع حقائق الجغرافية والتاريخ والظروف الموضوعية الاجتماعية والفكرية فهذا ليس مهما ، على هذا الاساس لاداعي للعمل من اجل الوحدة بل على العكس ان الشيوعيين لايمكن ان يرضوا على اي وحدة مهمـا كانت[13]

١٠- وثيقة العلماء السوفيت ، ص٥

١١- ن٠م ، ٨

١٢- ن٠م ، ص١١

١٣- ن٠م ، ص١٩

واذا كان هناك تفكير بوحدة ففي وحدة طبقية ليس الا[١٤] ، اي وحدة روسية تنقل النموذج الروسي للعرب وليست وحدة عربية تستوعب الظروف الموضوعية للعرب .

من هنا اصبح من غير المعقول التفكير بحزب شيوعي عربي لان هذا معناه القبول بالواقع القومي التاريخي والاعتراف بقوته وتاريخيته ويناقض التوجه الروسي الى الغاء هذا الواقع الذي يفترض العمل لتحقيقه ابعاد الشيوعي العربي عن اي احساس بالوحدة ، فالشيوعي مطالب بالترويج للواقع الاستعماري وليس للواقع القومي العربي ، هذا لان القضية تتعلق بالعرب اما لو كانت تتعلق بروسيا فالمسألة تختلف هناك حيث لايقود اي عامل موضوعي الى الوحدة، اصر لينين على فكرة الحزب الواحد للشيوعيين « لو وجد حزب واحد لغير وجه ر. سيا »[١٥] .

غير ان الشيوعيين يتناسون نص لينين بحجة اختلاف الظروف العامة للعرب ، ولكن ما الظروف التي املت على لينين قوله ؟ ظروف الاختلاف القومي وظروف التباين التأريخي والجغرافي وظروف تعدد الثقافات تقر الحزب الواحد في روسيا ولا تقره عربيا حيث ظروف الوحدة متكاملة ، ان هذا يكشف عن المزاجية في تفسير النصوص وهذه المزاجية نابعة من العداء الحضاري والقومي والمصالح التي تقف وراءه .

١٤ــ ن . م : ص٧

١٥ــ ن . م : ص٤

الفصـــل الخامس

لماذا العداء متعدد الاطراف

في عرضنا التأريخي لاحظنا عدة امور جوهرية : لاحظنا قدم النشأة الحضارية في الوطن العربي وفاعليتها ، فعلى مدى (٥٠٠٠) سنة بين فجر الحضارة في بلاد الرافدين وسقوط بابل سنة ٥٣٩ق.م على يد الفرس كان الوطن العربي ابرز مراكز الحضارة ومصدر الاشعاع العالمي وقائد حركة التأثير الحضاري في حياة البشرية ، ثم لاحظنا قدم التكون التأريخي للامة العربية والسمات التي حملها هذا التكون ، ففي وقت مبكر من بدء العملية الاجتماعية لسكان الوطن العربي بدأ النضج فيها يعبر عن نفسه في سمات وخصائص مشتركة جمعت الاقوام العربية القديمة وابرز هذه السمات وحدة الحركة التأريخية التي تجلت بأروع صورها في عملية التمثل والتواصل الحضاري ، وفي تبلور التوحيد والوحدة خطا عاما في التكون الحضاري فكريا وسياسيا ، واستعرضنا عبر المسيرة التأريخية مواقف العداء التي جابهتها الامة العربية ، فلاحظنا كيف ان الاقوام المحيطة بالوطن لعربي تأخذ منجزاته الفكرية والمادية وتوظفها في تكونها ، حتى اذا بلغت درجة من القوة اتجهت نحو الوطن العربي بمشاعر العداء والتعصب معبرة عن نزعة للهيمنة وعن عدم قدرتها على تجاوز شعورها بالنقص ازاء الازدهار الحضاري للامة العربية او ضيقها بالنمط الحضاري العربي ، ولاحظنا كيف ان هذا العداء يبدأ بنزعة تدميرية فيأخذ شكل غزو بربري عنيف يدمر ويكتسح في طريقه ليس القوة المتصدية له حسب ، وانما مراكز الحضارة والتمدن فيخرب المدن

ويدمر المنشآت ويقتل السكان ثم في وقت لاحق يبدأ بالمجابهة للنمط الحضاري فالغزو الاخميني اخذ هذه الصورة وتم له تدمير بابل والمستوطنات الآشورية ، وكذلك المغول عندما اكتسحوا العالم الاسلامي بأتجاه بغداد مدمرين مظاهرها العمرانية والحضارية • او يأخذ شكلا سلميا يبدأ بزرع بؤرة اميبية في احد اجزاء الوطن العربي تمارس الامتصاص الحضاري التدريجي من مراكز الحضارة تستوعب مافيها ، ثم تنقلها الى المركز الام الذي زرع البؤرة ليبدأ عملية تمثل لهذه النتائج ، واخذ مايتفق معه ورفض مالايتفق، ثم تكوين تراكم خاص من خبرة ومكتسبات حضارية فأذا ما انجز بناءه الحضاري عاد يصدر هذا البناء الى بؤره التي زرعها لتقوم هي ايضًا بالتبشير بها في البيئات التي زرعت فيها ، وهكذا فعل اليونانيون القدماء في التعامل مع حضارة الوطن العربي ، من خلال مدارس انطاكية والاسكندرية وهكذا فعل الاستعمار في عصر النهضة من خلال بعثاته التبشيرية التي اخذت في البداية شكل ارتياد ثم تحولت الى مدارس ومستشفيات تمارس نشر الثقافة والتعليم انطلاقا من فلسفة الاستعمار • او عداء يأخذ شكل القبول المعلن بالنمط الحضاري للامة العربية غير انه يبطن عقلا مفكرا في كيفية تطويع هذا النمط واصداره مطوعا دون لفت الانتباه ، وممارسة التخريب مستفيدا من الغطاء الذي اتخذه ، كما فعل اليونانيون بحضارات بابل والنيل وكما فعل اليهود بالتوحيد الاول وكما فعل الرومان بالمسيحية وكذلك موقف ارستقراطيو الفرس ورجال الديانة المجوسية الذين اعتنقوا الاسلام وتمالأوا على الدس والتخريب الثقافي والتحريف والتزوير ، واذا كانت الامة العربية قد وعت الاشكال العدائية القديمة بتجددها الحضاري والقومي في الاسلام فأنها ومنذ سقوط بغداد تعيش مرحلة استعمارية متصلة وصلت مرحلة تواجه منها الامة اخطر تحديين هما : ـ

١) التحدي الاستعماري الرأسمالي الذي يتجسد في احتلال القوى الاوربية الرأسمالية للوطن العربي ومانجم عنه من تجزئة، وزرع الكيان الصهيوني

لادامة التخلف واجهاض اتجاهات التنمية والتقدم ، واعاقة بلوغ الامة وحدتها التي تضعها على طريق الفعل الحضاري ، والاستعداد الدائم لدعم اي موقف معادي للامة العربية •

٢) التحدي الشيوعي الذي اتجه الى اجهاض حركة القومية العربية والدعوة الى تجاوزها الى امية سائبة مجردة ومن ثم وصوله الى الهدف نفسه الذي يستهدفه التحدي الرأسمالي (الطمس القومي) عن طريق تكريس التجزئة وسحب الامة خارج انتماءها القومي اطلاقا •

اشكال العداء

لقد شهدت المرحلة الاستعمارية كل الاساليب العدوانية التي يمكن تصنيفها الى اربعة اشكال حسب المراحل التالية : —

المرحلة الاولى : اخذت شكل توجيه ضربات عسكرية سريعة لمراكز اليقظة والقوة ، وهي المرحلة التي بدأها البرتغاليون في انسياحهم البحري الاستكشافي الذي تجاوز المغرب العربي القوي للالتفاف حول الوطن العربي وتوجيه الضربة في الخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية ، وقد اكملت الدول الاوربية هذا العمل بتنافسها حيث كانت تحدد حجم مصالحها وكيفية حصولها عليها وحمايتها في آن واحد واذا كان البرتغاليون اكتفوا بزرع قواعد في المناطق الستراتيجية فالانكليز خططوا لتكوين المساحات الجغرافية الحامية لهذه القواعد ، وهنا بدأ تنفيذ عملية الترويض التي املت على الدول الاستعمارية ضرورة دراسة السكان وحركتهم التأريخية لفهم كيفية ترويضهم فأشرت بداية مرحلة جديدة •

المرحلة الثانية : اخذت شكل جهود مكثفة للتغريب ، والمقصود بالتغريب هنا هو جعل الانسان العربي يشعر بغربته في وطنه ، وذلك بأجراء عملية تكييف ذاتية له ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف لجأ الغرب الى مايلي : ـ

اولا : التخفيف من حدة الارتباط الفكري بالاسلام وتركيز الهجوم الثقافي الاوربي على قيمة الاسلام الحضارية والفكرية وتصويره بأنه مصدر تخلف العرب والمسلمين ، وانه دين محض خال من المحتوى الاجتماعي فهو لايمتلك حلولا سياسية ولا اجتماعية ولا اقتصادية ، ولم يكن دين دولة وحضارة ، وانه مجرد عبادات ، وان روح الاسلام الاولى كانت لمجرد الغزو الاقتصادي وبما ان الحضارة الاوربية جاءت بشكل جديد مبتكر للانتاج المادي غير مألوف فعلى العرب والمسلمين ان يقبلوا بقيادة اوربا لتحديثهم ونقلهم من التخلف الى التمدن ، اذن ليس ثمة داع للحاجز النفسي الذي ينظر لاوربا على انها عالم كفر وبالتالي لاداعي للجهاد، انما المطلوب الطاعة والتعاون من اجل جني ثمار الحضارة الاوربية .

ثانيا : واذا كان الدين الاسلامي مجرد عبادة فهو اذا مسألة خاصة مع الله وما على المثقفين الا ان يبحثوا عن ذواتهم الخاصة المستمدة من بيئاتهم فالمصري له بيئة فرعونية والسوري له بيئة فنيقية والمغربي له بيئة بربرية وهكذا استخدم علم الاثار والتنقيبات في تقديم مادة اعتناق ثقافي بديل للقومية وللاسلام، وهذه البيئات ليست بيئات محدودة في اقليميتها الجغرافية وانما هي مفتوحة على البحر المتوسط فهي اذا تشترك مع دوله في نمط عقلي واحد فينيقي فرعوني او بربري مع اليونان

والرومان ثم مع اوربا الناهضة الان فللاخذ بأسباب النهضة الاوربية يفترض التوجه الى اوربا ، وقبول الاوربيين لكونهم نقلة الحضارة الجديدة •

الثالث : ان الوطن العربي ليس وطنا واحدا لشعب واحد فالعراق كان جنوبه يوما للكلدانيين وشماله للاشوريين والشام كان للفينيقين والعبرانيين ومصر للفراعنة ، والمغرب العربي للبربر والسواحل الجنوبية زنجية والسواحل الشرقية فارسية وحتى الاسلام لم يخلق وحدة اجتماعية سياسية ثقافية اقتصادية فالعرب اضافة الى انهم قبائل (عدنانيون وقحطانيون) فهم وحدات قبلية صغرى ايضا وفي الاسلام كانوا امويين وخوارج وعباسيين وعلويين ، سنة وشيعة ، وهكذا ومن اجل تنفيذ سياسة التغريب استخدمت الدول الاوربية عدة اساليب فمن تطعيم المجتمع العربي بالجاليات الاوربية الى اغراقه بالبعثات التبشيرية ونشر المدارس الاجنبية وزرع النعرات الطائفية واثارة امور الاقليات ، وبالمقابل لجأت اوربا الى هدم ما هو قومي من الثقافة والتعليم ومقومات الشخصية القومية العربية ، والاكثر من هذا ، الحرص على تعليم الاطفال في المدارس الاجنبية وتشجيع الزواج بالاجانب ، لقد كشف الاستعمار عن اهتمامه بهذه الاساليب عندما امرت الكنيسة اتباعها الاوربيين في الصومال بالزواج من الصوماليات لانجاب اطفال يجري تربيتهم تربية اوربية فتحولت هذه الجاليات الى بيئات تغريب اجتماعي •

المرحلة الثالثة : شهد اواخر القرن التاسع عشر نضج جهود التغريب ، لذلك كان من الضروري التفكير بصيغ للاحتواء ، اتجهت جهود الاحتواء نحو احتواء المجتمع واحتواء للواقع العربي كله •

اخذت عملية احتواء المجتمع شكل جهود متوازية من افساد مستمر للانسان الى ربطه بأسار الغرب الاوربي ماديا فبعد التغريب ظهرت فكرة المنظمات الغامضة الاهداف كالماسونية والبهائية والروتاري وغيرها من المنظمات التي تعزز التغريب وتعزز على المدى البعيد عملية هدم الانسان العربي على مدى اجيال متصلة وصولا الى الطمس القومي والحضاري والاجتثاث من التاريخ .

اما على مستوى الواقع العربي فأنها اخذت شكل اعادة ترتيب جغرافي واجتماعي وثقافي واعادة صياغة للتاريخ وتكوين اخلاقي وسلوكي جديد ، والواقع ان مثل هذه المرحلة كانت مرحلة فنية ليس الا فالجهود اللازمة لها تم انجازها على مدى قرنين من الزمان عبر التغريب وعبر النشر الثقافي للبحوث والدراسات الخاصة بالوطن العربي والتأريخ العربي وعبر الهدم المستمر للانسان وقيمه وتقاليده ، كل ما كانت تحتاجه هو حصر الجهود وتوجيهها نحو الهدف العام الذي يجعل الترتيب شبه نهائي بحيث تصبح الامور سائرة في مجرى هذا الترتيب ويتفرغ الاستعمار الى علاج احتمالات المستقبل ، وفي هذا المضمار ادت لجنة (كرومر) ولجنة (هنري كامبل بنرمان) الدور الحاسم فقد وضعت الاسس العلمية لتطبيق التجزئة وقدمت لادارة الحرب الاوربية مخططات للتنفيذ واوكلت لدوائر الاستعمار مهمة المراقبة والمتابعة الفنية .

المرحلة الرابعة : ـ مرحلة التعزيز ، هذه المرحلة ماتزال قائمة وهي تشهد الجهود المستمرة لتعزيز الوضع القائم ، على هذا الاساس تدخل في ممارساتها وفي صيغ تنفيذها وسائل قد لاتكون

محددة في حدود الوطن العربي وانما منتشرة في مختلف اماكن العالم وحيث توجد امكانية للافادة مما يخدم هـذا الهدف، مثل الاستمرار في طرح قضايا الاقليات القومية والطوائف الدينية ، والبحث عن تقديم بعض القضايا الخاصة بالتاريخ العربي والامة العربية ، واعادة استخدام المذهبية ، غير ان اخطر ما في هذه المرحلة انها مصحوبة بأمرين اساسيين الاول هوظهور الحركة الشيوعية الدولية وامتدادها فيالاقطارالعربية (الاحزاب الشيوعية) التي اتجهت الى استغلال ناتج المرحلة الاستعمارية في الوطن العربي لصالحها ، وعملها على تنظير التجزئة وتجيير مسائل الاقليات والطوائفوالمذاهب، لصالحهافيالوقت الذي تحاول حركة الثورة العربية سحب هذه الموضوعات من المناخ الثقافي العام الذي احاطها به الاستعمار الى المناخ الوطني والقومي الانساني للامة العربية ٠ والثاني هو ذلك التقدم في مختلف صنوف المعرفة والعلوم الذي يجعل امكانات الخصوم اكثر من امكانات حركة الثورة العربية ٠

على اننا نرى من الضروري الاشارة الى ابرز ملامح مرحلة التعزيز التي هي في تقديرنا تحويل الكيان الصهيوني الى كيان مقبول عربيا ، والانتقال بالتجزئة من حدود البناء القومي العام الى مكوناته اي البحث عن صيغ للشرذمة المستمرة وفي هذاالمجال تبرز التجزئة العمودية علىاساس الدين ثم على اساس المذهب وتعزيز عملية التخلف الاجتماعي وذلك بتعطيل التنمية وتحويل امكانات الامة العربية في اتجاه دعم القوة العسكرية التي باشرت الدول الكبرى تضغط باتجاه توظيفها لصالحها عن طريق تحويل الوطن العربي الى ساحة للصراع بين القوتين الكبيرتين وقودها البشري عربي ،

كما حصل في اليمن ولبنان ، وكما يراد للمغرب العربي ان يشهده في الوقت الذي تنشط فيه وسائل الافساد الاجتماعي، ومواصلة هدم الانسان بتصدير قشور ومظاهر ترف النهضة الحضارية لاوربا من وسائل الادب الماجن وصرعات الشباب والتغيير الدائم لازياء الملابس والمخدرات والمذاهب الوجودية وتشجيع نزعة السلبية واللاابالية عند الجيل الجديد .

اسباب العداء

ينشأ التناقض عندما يصبح من غير الممكن التوافق بين شيئين فيصبح الموقف اللاحق هو التضاد ثم يبدأ الصراع قصد الاحتواء او الازاحة وفي حالة فشل الاحتواء لابد من الازاحة ، وقد وقفنا في دراستنا على تفاصيل الصراع وعمليات الاحتواء والازاحة واذا مارسنا عملية تجميع لتلك التفاصيل وجدنا ان جوهر الصراع ناجم عن تناقض مع الامة العربية التي تمثل نمطا حضاريا خاصا يختلف عن غيره بحيث يشعر الاخرون بأنهم موضع تناقض معها ، ولكي نكون واضحين نود ان نشير الى اننا في عرضنا هذا تتذكر جيدا الحكمة العربية « كلنا من آدم وآدم من تراب » فهذا العالم لم يخلق لنا وحدنا ، ولسنا وحدنا الذين فيه انما نحن امة من امم ولكل امة رسالتها وقدر لامتنا ان تكون لها رسالتها وان تمتلك المزايا التالية :

اولا : انها امة عريقة في الحضارة ، بل ربما تنفرد بخلفية حضارية بعيدة الجذور ، وخبراتها المتراكمة من تلك الخلفية كثيرة ومتنوعة وادت دورا مهما في توجيه حياتها وحياة البشرية طوال خمسة الاف عام ، وعلى اربع مراحل منذ فجر الحضارة ، بدأت هذه الخبرات عندما اكتشفت الزراعة وادواتها الفأس والمحراث ونظمت الري فأقامت السدود وشقت الترع

والقنوات ، وطرقت المعادن ، وابتكرت الكتابة ، وسنت اول الشرائع لتنظيم الحياة ، وابتنت المدن وانجبت فنا يعبر عن ذوق رفيع وسمو في الروح وعشق للحياة والحرية •

وتميزت بعطاء فكري انساني ثر تجاوز حدودها القومية في التأثير العميق في مجرى الحياة الانسانية وأدت دورا اساسيا في تحديد اتجاهاتها المركزية •

ثانيا : ان انسانها اتسم بقدرته على الادراك والسيطرة والتقدم لذلك فحضارتها في تجدد مستمر ، فالقدر المتحقق من الخبرة يحول الى استنتاجات واحكام وعمليات سيطرة على الطبيعة ، اي الارتقاء بموقع الانسان من الطبيعة ومثل هذا الارتقاء يقود الى مرحلة جديدة من التقدم ، وصنع الحضارة ، فأكتسبت قابلية على خلق العقائد فريدة من نوعها •

ثالثا : يقوم نمطها الحضاري على ادراك مبكر للكون ، ووعي بالقيم الروحية المطلوبة لفعل هذا الادراك ، ولكيفية تحديد علاقة الانسان بالكون والتعبير عن هذه العلاقة في اروع تصوير ادبي عرفته البشرية لقصة الخليقة ، فليس من باب المصادفة ان يكون الوطن العربي بيئة اول المعتقدات الدينية البدائية ، ثم بيئة الرسالات السماوية ، واقترن كل ذلك بنضج اجتماعي (اقتصادي وسياسي وثقافي) محكوم بمعادلة اخلاقية تقوم اساسا على توازن « السماوي » « والارضي » ويعبر هذا التوازن عن نفسه في حلقتين :

أ ــ توازن الدافع الروحي مع الدافع المادي في العملية الاجتماعية للامة •

ب ــ توازن الدافع القومي مع الدافع الانساني في الحركة التأريخية للامة •

ومن هذا المنطلق استطاع سكان الوطن العربي القدماء ان يواصلوا

الفعل الحضاري بعقل مثابر ، وان تنتج مثابرتهم العقلية انظمة سياسية متقدمة متقنة التنظيم في وادي الرافدين ووادي النيل واليمن ، وان يواصلوا تطوير جوهرهم الحضاري حتى في مراحل ضعفهم السياسي (كما حصل قبل الاسلام) ثم يشكل تواصلهم مع ذلك الجوهر اساس اختمارهم الحضاري الذي سبق الاسلام • ان صفة التواصل في الفعل الحضاري اوجدت بناء حضاريا يصح القول انه بناء الطبقات الحضارية لابمعنى التمايز وانما بمعنى التكامل والنضج الذي بلغ قمته في الاسلام فأرسى اسس امة لاتزول •

رابعا : مرونة التبادل تأثرا وتأثيرا ، فأمتنا العربية اجادت عبر حركتها التأريخية لغة الاتصال بالشعوب والحوار معها وصنع خبرة مضافة ، فصنعت لنفسها صيغة خاصة واسلوبا متميزا في الحوار مع الحضارات جوهره التبادل المتكافىء المنطلق من رغبة في الاستزادة وخدمة البشرية ، لايعرف الالغاء والانكار ، ولايمارس التسلط والاحتكار ، فتقدير الانسان كان دافعا وراء سعي الامة الى تنمية عواطفه واثارة وجدانه وتكوين ذوقه وتمكينه من التخيل ، وسعيها في خدمة الانسانية لهذا كان العرب في كل تحركهم التأريخي يتجهون اولا الى بناء الروح والانسان قبل البناء المادي الذي يمثل حركتهما على الارض ، وقد اتسم الحوار الحضاري للامة مع غيرها بأنه حوار واع لايضعف ولاينبهر لاينسخ انما يتمثل فيستوعب ويهضم ويبتكر من منطلق استقرار الشخصية ووضوح الرؤيا •

خامسا : ان بين الامة ووطنها تلازم مصيري ومحاكاة عبرت عن نفسها بفلسفة استخدام حضاري للوطن فريدة من نوعها يعبر عنها انتشار بؤر الحضارة والقدرة على استخدام الوطن في الفعل الحضاري فهي تجتازه اذا شعرت بأنها مطالبة انسانيا بالاجتياز لكنها لاتتخلى عن شبر منه بأي شكل كان •

وهكذا احتل العرب موقع الفعل الحضاري وخلق العقائد تأريخيا وفق نمط خاص ، غير ان مشكلة الامة العربية ان احتكاكها كان بأستمرار مع من لايجيد لغة الحوار الحضاري • ومن هنا حصل التناقض ، وقد عبر هذا التناقض عن نفسه فيشكل تحديات متنوعة ومتعددة عبر التأريخ •

اتجاهات العداء

استعرضنا وقائع تأريخية كثيرة ومتنوعة في سياق العداء للامة العربية، يكشف لنا تنظيمها عن اتجاهات متعددة للعداء غير ان الاهم والاكثر الفاتا للنظر ان هذا العداء لم يقتصر على زمنه وانما كثيرا ما كان يرتد الى الخلف او يترك اثاره ممتدة في المستقبل على ان التحدي الغربي المعاصر الذي تعيشه امتنا يمتاز بشمولية التوجه فهو لم يقتصر على شمول زمنه وتغطية كل مجالات الحياة القومية ، وانما ارتد الى الخلف معيدا ترتيب حقائق الماضي والموقف منها ممتدا بأثره في المستقبل عاملا على الحيلولة دون اي تحقق قومي فيه •

لاشك ان تنامي القوة والتقدم العلمي في الحضارة الغربية من الامور الجوهرية وراء شمولية العداء واتجاهاته ودقة تنفيذه وقد اقترن تحالف الاعداء مع التخلف ذاته في تفويت فرصة النهوض القومي وامتلاك قدرة التصدي ، يضاف الى هذا ان الغرب من خلال دراسته للتراث العربي استطاع ان يستكشف صيغ المقاومة عند الامة بحيث اخذ بنظر الاعتبار الامتداد بالعداء اماما في المستقبل والارتداد به الى الخلف الى اعماق الماضي ، ان هذه الشمولية تحدد عدة اتجاهات للعداء •

الاول : عداء موجه الى النمط الحضاري العربي •

الثاني : عداء موجه الى الانسان العربي •

الثالث : عداء موجه الى فكرة القومية العربية •

الرابع : عداء موجه الى المستقبل العربي •

الاتجاه الاول : العداء للنمط الحضاري للامة العربية

من يتتبع مسيرة التحديات التي جابهتها الامة العربية في التأريخ القديم او تلك التي تجابهها الآن يلاحظ جيدا الروح العدائية المضادة للنمط الحضاري للامة العربية متجسدة في :

١) العداء للنزوع الروحي والاخلاقي في التطور الحضاري العربي ، فقد كشف تاريخ الحضارات القديمة عن نمطين ، نمط يستمد قيمه من توازن روحي ــ مادي في الفكر والعملية الاجتماعية ، ونمط احادي مطلق واذا كان العرب قد عبروا في نمطهم عن هذا التوازن بفكرة « التوحيد » الذي بدأ في مجال المعتقدات الدينية ثم اصبح ملازما للعملية الاجتماعية في شكل وحدة سياسية وثقافية ، فالاقوام التي ناصبت الامة العداء ركزت على هدم مبدأ التوحيد بشكليه الديني والاجتماعي ، فكل القوى التي غزت الوطن العربي كانت وثنية مشركة وقفت موقفا عدائيا من التوحيد اما برفضه او تحريفه وتشجيع اعتناقه والتبشير به واجبار السكان على اعتناقه وهذا كان موقف الفرس الذين احتضنوا التحريف اليهودي وشجعوا انتشاره في الاراضي العربية التي احتلوها، بعدما رأوا استحالة ايمان العربي بالمجوسية ، لقد اعلن هذا التحالف بينهم وبين التحريف اليهودي منذ دخولهم بابل ومساعدتهم للاسرى المحرفين في العودة الى فلسطين ، واستمر طوال التاريخ الى الوقت الراهن ، فقد احتضن الساسانيون الحركة الفكرية لليهود المحرفين في العراق واليمن قبل الاسلام وعملت الحركات الفارسية المعادية للعروبة بتعاون مع المنظمات ذات الانتماء الصهيوني في التأريخ الحديث فالبابية والبهائية والماسونية والصهيونية تعيش تداخلا لايسمح احيانا بالتمييز فيما بينها •

وكان موقف الرومان كذلك ، فقد وقفوا ضد المسيح في فلسطين وشجعوا المحرفين اليهود على مقاومته فكريا والحوار الذي شغل عصر المسيح كان من اجل اثبات روحانية التوحيد ، ومن ثم تعاونوا معا على صلبه وبقيت الامبراطورية الرومانية ترفض النصرانية العربية الى ان قام اثنان من تلاميذ المسيح بتكييف التوحيد النصراني لينسجم مع العقلية الاوربية التي عاشا في ابرز مراكزها (اثينا ـ روما) ، لقد تركز التكييف على القول بالوهية المسيح ، عند ذاك اعتنق الرومان النصرانية وجاءوا مبشرين بها في الوطن العربي ، وفرضوا على السكان اعتناقها على هذا الاساس .

رفض النصارى العرب التحريف الروماني واصروا على ان المسيح بشر ، ومن هنا نشأت حركة الاضطهاد الروماني للموحدين النصارى التي بلغت اشدها في القرن الرابع ، عندما اعطى اريوس الراهب المصري للتوحيد النصراني دلائله العلمية والتأريخية التي يدحض بها التحريف الروماني ، حتى ان الموحدين عبروا عن رفضهم هذا التحريف بأن اسموه « المذهب الملكاني » نسبة الى الملك الروماني ، لقد ساد العرب انطباع يرى ان القوى الاجنبية تسلك معهم طريقا معاديا للتوحيد عندما ارجعوا انتشار الوثنية في الجزيرة العربية الى تأثير الاحتلال الروماني او الفارسي على عمرو بن لحي الخزاعي الذي جاء بالاصنام اما من هيت او البتراء وهما مركزان للساسانيين والرومان .

٢) شل الفاعلية الحضارية للامة :

لجأ اعداء الامة لتحقيق هدفهم هذا الى تقليص فرص التمدن الاجتماعي وذلك بتحجيم التعليم والثقافة ، واول الاشارات في هذا المجال تصل الينا من العصر البويهي فقد كان التقليد السائد في الحركة العلمية العربية ان التعليم مجاني يحصل عليه المواطن في المساجد ودور العلم ومنازل العلماء في شكل محاضرات ، والغريب اننا بعد دخول البويهين الى العراق في القرن الرابع الهجري لم نعد نسمع عن محاضري بغداد ، وبدأنا نسمع عن اتساع نطاق

التأليف في وقت بدأ التخلف الاقتصادي يتسع نطاقه بسبب نظام الاقطاع الذي طبقه الاعاجم قبل ذلك ، واذا اولينا اهتماما بالفروق الفكرية بين البويهيين وبين المجتمع نستطيع القول ان تشجيع التأليف كان بديلا للتعليم المجانـي ، واذا علمنا ان الكتاب يقدم الى السلطان ليأخذ الكاتب مكافأته نستطيع القول ان السلطان لايسمح بمرور كتاب يتناقض مع موقفه الفكري ، وحتى الكتـاب الذي يمركم يكون عدد القادرين على شراءه في حالة تدني المستوى الاقتصادي للسكان وارتفاع اسعار الكتب • لقد كان هذا موقف السلاجقة ايضا ، ولمـا استطاع الخلفاءالمتأخرون في القرن السادس تحرير الخلافة مـن الاحتـلال الاجنبي اهتموا بالتعليم وادخلوا مبدأ الرياضة الشعبية مع التعليم ، وانشأوا المدرسة المستنصرية لتخريج العلماء ونشر الثقافة فلما جاء المغول دمروا بغداد ودمروا دور العلم فيها واتلفوا التراث وظهرت نتائج عملهم هذا في هجرة من تبقى من المفكرين والعلماء الى بلاد الشام ومصر ، واضمحلال الحركة الفكرية ومن يستعرض كتاب الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة يـرى بوضـوح ان النشاط الثقافي اقتصر على تلخيص العلوم السابقة او نسخها ولم يكن هناك اي ابداع او تأليف جديد ثم جاء الاتراك العثمانيون ففرضوا على العرب ابشع تخلف وجاء الاوربيون بدءً من البرتغالين ينهبون المكتبات العربية ويدمرون دور العلم لينشئوا بدلها مدارسهم التبشيرية ثم تتركز جهود القوى الاستعمارية في اواخر القرن التاسع عشر على التبشير باللغات العامية ضد العربية الفصيحة ثم تحريم استخدامها كما فعل الاتحاديون الاتراك والفرنسيـون في اقطـار المغرب العربي والانكليز في مصر •

٣) الغاء الذاكرة القومية

ان الذي يستعرض الكتابات الحديثة والمعاصرة للتاريخ العربي يكشف بسرعة نشاط الاوربيين في هذه الكتابات ، في وقت شهد نشوء حركة الاستعمار ورافقها ، والذي يضع الحقائق المقدمة في هذه الكتابات عن التاريخ العربـي خلفية للسياسة الاستعمارية يدرك مدى العلاقة بينهما ، ويكشف الاهـداف

الثقافية لهذه الكتابة ، ومنذ ان وضع (ميور) كتابه عن تاريخ الخلفاء اصبح واضحا انه وضع الفلسفة التي بموجبها تكونت الرؤية للتاريخ العربي واصبحت رؤية مكتوبة تهدف الدراسات العليا والتفصيلية اللاحقة الى انضاجها وانها تشكل الفهم الاوربي للتاريخ العربي الذي يجب ان يعمم وان يدرس للعرب، وبالفعل فمنذ ذلك الوقت لم تخرج دراسة التاريخ عن هذا الاطار ويمكن تحديد ابرز ملامحه بما يلي :

١) عدم وجود تاريخ عربي لامة عربية بل هناك تاريخ لقوم حملوا الاسلام وماسبقه صورة غائمة عن قبائل لاترتبط برابطة تسودها حالة من الاقتتال والغزو وتتسم حياتها بالتخلف والبداوة ، وبذلك الانفصال بين نوعين من البشر ، البدو وسكان المستوطنات المتحضرة وكأننا ازاء تقسيم اثني، وواضح ان هذه الصورة تهدف الى قطع تواصل الامة العربية التأريخي، واظهاره وكأنه ابن مصادفة اسمها الاسلام ، ان النتيجة المنطقية لهذه الفلسفة الغاء تاريخية الامة وكشف العرب وكأنهم ذوو تأريخ محدود سمته التناحر والانقسامات والهزائم فحسب ، وصولا الى قتل روح الولاء للامة ، وحتى تأريخها في الاسلام قدم بصورة من الانقسامات الداخلية متعددة الاشكال تم سحبها على المساحة الزمنية للتاريخ بأكمله.

٢) تصوير الحركة التأريخية للامة على انها (حركة فردية) وفي حلقة اوسع (حركة اسرية) في محاولة لطمس البناء الاجتماعي للامة العربية واضعاف روحه وتصويره على انه مجرد تاريخ سياسي للاسر والخلفاء فحسب ، دونما اشارة الى مظاهر العملية الاجتماعية للامة ويظهر جيدا في التقسيم الاسري للتاريخ المعمول به الى الان الذي سحب على معظم العصور واصبح تقسيما ثابتا في كتب التأريخ حتى عند المؤرخين العرب انفسهم ، ومنهجا في دراسة التأريخ والادب .

٣) اتخاذ الغاء تواصل الامة تأريخيا خطوة على طريق افراغ التأريخ العربي من روح الثورة ، والتعمية على الدور الاجتماعي فيه ، ويتضح هذا في شكل

التعامل مع الاسلام ، واظهاره بمظهر الدين المقتصر على النظام العام وتجاهل حالة الثورة فيه ، وعدم الاشارة الى نموه وتطوره التاريخي المرافق لنمو وتطور الامة ، وتصوير القرآن على انه مجرد كتاب في العبادات وفروضها ، دونما اشارة الى الابعاد الاجتماعية فيه والدعوة الى الثورة والمبادىء العامة لهذه الثورة والنظرة الستراتيجية لتكوين مجتمع ثوري له نظرة حضارية متجددة الى الحياة ، كذلك يتضح المنهج المعادي في دراسة الاسلام في تصوير الرسول (ص) على انه مجرد رسول يوحى له ، واهمال دوره قائدا له رؤية ستراتيجية ثورية وصيغ تكتيكية في تنفيذ الثورة ، وتشويه صيغة انجازه التحول الثوري في حياة الامة، واظهارها مجرد احاديث يختلف في صحتها وكأنها مجرد صياغات ومفردات لغوية •

٤) الغاء سمة العقلانية والتنظير (المنهجية) في التأريخ العربي والغاء دور العرب الحضاري ولاسيما الجوانب العقلية والفكرية ، لقد ارتكزت هذه النظرة الى منطلق اساسي هو عدم وجود صلة حقيقية حضارية بين العرب في الاسلام وبين الاجيال العربية القديمة التي صنعت الحضارات القديمة في الوطن العربي وتحويل تلك الحضارة الى مجرد اطلال لمدن وتحف وموروثات حضارية تزين واجهات المتاحف ويتضح هذا التوجه في تقسيم الفلسفة على مرحلتين :

١) المرحلة ماقبل العقلية وهي تشمل حضارات الوطن العربي القديمة واسهاماتها الفكرية والعلمية في الحياة البشرية •

٢) المرحلة العقلية وهي التي تبدأ بالفلسفة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد ، وحتى في هذا التقسيم ليس للعرب دور في الفلسفة والعلوم فثمة انقطاع في تطور الفلسفة يبدأ بسقوط اليونان الى عصر النهضة الاوربية ونشوء الفلسفة الحديثة ، غير ان هذا البناء

لايصمد امام الحقائق التأريخية ولاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار مظاهر العملية الاجتماعية للانسان قبل اليونان وماتم التوصل له في التطبيق الفعلي اليومي للعلوم والفكر وماانتج عنه من نشاط اقتصادي وعمراني وتطور سياسي ، ثم تصوره على انه جزء من نظرة فكرية شاملة للكون وكيفية خلقه ، ثم يجب ان نتذكر ان اليونانيين المشار اليهم كانوا مجرد قبائل بربرية في حدود الفين قبل الميلاد (عصر ظهورهم على مسرح التأريخ) حيث قضوا على الحضارة المينية ولم يظهر لديهم نشاط حضاري حتى القرن السادس قبل الميلاد ، مما يؤكد انهم لم يكونوا ذوي شأن حضاري عند ظهورهم وانهم استغرقوا زمنا طويلا قبل ان يظهروا نشاطا ذا قيمة حضارية ، وحتى هذا النشاط ليس ذاتيا اذ يتضح يوما بعد يوم دور البؤر اليونانية التي استوطنت السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط (السواحل العربية) التي بفعل خلفيتها الحضارية ادت دورا في نقل علوم وفكر الشرق الى اليونان حيث تمت عملية تكييفه ليخدم العقلية الاوربية كما تتضح مع اتساع عملية الكشف الاثاري والبحوث التأريخية ، الجذور العربية للفكر اليوناني القديم كما تتضح الجذور العربية للفلسفة الاوربية في عصر النهضة التي كان يطلق عليها الفلسفة الرشدية (اشارة الى ابن رشد) .

الاتجاه الثاني :العداء للانسان العربي

ظهر التوجه الاستعماري الى هدم الانسان العربي منذ بدأ الاستعمار بأستكشاف الوطن العربي والوقوف على اوضاعه ، في البداية كانت الوسائل التقليدية وسائل سريعة الاعتماد (الافساد الخلقي) حيث ظهرت مراكز البغاء وبيع الخمور الى جانب المدن العربية ذات النشاط الحضاري ، غير ان هذه الوسائل لم تكن حلولا دائمة او ذات اثر نهائي كانت فعالة في حدود جيل غير

انها لاتفي بالغرض للعمل المستقبلي خاصة ، لذلك كان طبيعيا ابتكار صيغ متجددة تحقق هذا الهدف (هدم الانسان العربي) وشل فاعليته •

جاءت الخطوة الاولى في هذا السياق عندما بدأت القوى الاجنبية تسقط مقومات ثقة الانسان العربي بنفسه بأسقاطها القيمة التأريخية التي تقوم عليها ثقته (النشاط الحضاري والحركية الدائمة)، فمثل هذا العمل ينهي مسألة انتماء الانسان الى مناخ عام اجتماعي ثقافي ويحوله الى كيان محدود وخاص ، قائم بذاته ومع ضعف وعيه يضعف شعوره بالمسؤولية القومية ويتحول من انسان يعيش لاجل الامة الى انسان يعيش على حسابها ، لذلك شنت المراكز الثقافية الاستعمارية حملات مسعورة ضد الاسلام ، وضد البناء الواحد للحضارات العربية ، فصورت الاسلام مجرد دين وسخفت ذلك البناء العام ، وحجمت الحضارة القديمة بنسبتها الى اقوام ظهرت في دراسات الاوربيين متنافرة غير مرتبطة برابط يظهر وحدتها البشرية ، وركزت في نشاطها الثقافي على ابراز الطابع الاسطوري والغيبي في الحضارة العربية ، واظهارها بعيدة عن روح التنظير والعقلنة وكأنها مجرد نشاط خيالي لايحدث اثرا في الواقع اليومي ، لقد كان لمثل هذه الممارسات خطورتها في وقت بدأت فيه الحضارة الاوربية تفرز يوميا ابتكارات ذات قدرة على تغيير مدركات الانسان، فتحولت الى عامل تعزيز للادعاءات الاوربية في موقفها من الحضارة العربية •

استغلت اوربا تفوقها الحضاري في عملية اقناع عام بأن التقدم يبدأ بالسير على طريق اوربا ، وان العودة الى الذات القومية مسألة غير مجدية ولاسيما انها قاومت اية فكرة للتجديد ، فتجمعت ضغوط فقدان الثقة والتيئيس والانبهار بالحضارة لتصنع هزيمة الانسان في مراحلها الاولية ، عندما جعلته يقبل بمبدأ السير على طريق اوربا في التقدم اي استأصلت منه فكرة التميز التي تدفعه الى البحث في ذاته الشخصي والقومي عن سبل التقدم ، وكانت هذه الخطوة كبيرة ليس في حدود انجازها انما فيما ترتب عليها فيما بعد ، فقد كانت هي الممهد لصرف الانسان العربي عن فكرة (الجهاد) والمقاومة طالما ان

الذي امامه ليس قوة غزو انما قوة تقدم وكانت الامال المعلقة على هذه الخطوة كبيرة لانها تلغي عمليا فاعلية الانسان وحيوية التغيير والحركة فيه ، وتسقط الحاجز النفسي بينه وبين اوربا لذلك ليس عجيبا ان رأينا شدة التركيز على انجاز هذه المرحلة فقد استخدمت اوربا المبشرين ومثقفيها واوجدت حركات دينية تسعى لتحقيق هذا الهدف بين الناس •

ان التدقيق في وسائل التعامل الاوربي مع الانسان العربي في المرحلة التي تلت هذه مباشرة لايكشف فيها طابع الحوار انما يرى طابع القهر فجهود اوربا اللاحقة اخذت لها مسارين في تطورها •

الاول : تغريب الانسان العربي بما خلقت حوله من ظروف اجتماعية تمثلت ببؤر قوامها الجاليات الاوربية والهجرة الاجنبية والتخلخل في البناء القومي العام ، ثم التغريب الثقافي ، بأضعاف اللغة القومية للانسان العربي واشاعة عدة لغات اجنبية في آن واحد وممارسة التخريب الثقافي فيما يقدم للانسان من معلومات ثقافية وتشجيع الاقتباس الاعمى لما يعرض له من قشور ومظاهر الحضارة الاوربية ، وتشجيع الغزو الثقافي الاوربي فماان حل القرن العشرين حتى اصبح الانسان العربي يسكن منزلا على الطراز الاوربي رغم عدم ملائمته للبيئة ويرتدي الملابس الاوربية ، ويتكلم لغة اوربية وتصنع اوربا لحظات راحته وبؤسه ، متعته وتعبه ، اصبحت اوربا نموذجه الامثل واختفت من مخيلته اية سمة تميز قومي او احساس بالخصوصية •

الثاني : الحفاظ على التخلف العام الذي يحتضن الانسان العربي ويحرمه من نهضة حقيقية ، لقد تشدد الاستعمار في هذه النقطة فضيق التعليم وجعل الحد المسموح منه مشوها غير هادف ولايقود الى تنمية حقيقية ، ثم حجب التقدم العلمي والتكنلوجيا واستمر يضغط بأتجاه شل التنمية وحرفها عن مسارها الحقيقي بتوجيهها الى

مجالات لاتحدث تغييرا اجتماعيا جوهريا وقد افاد الاستعمار من زرع الكيان الصهيوني ان اوجد حالة حرب دائمة تقلل فرص التنمية ليس في جو انعدام الاستقرار فقط ، انما في توجيه الثروة العربية الى التسليح في الوقت الذي يبقي عملية التحكم في مستويات التسلح وتوازن القوى بيده بحيث يضمن استمرار مخططاته هذه .

لم يغفل الاستعمار قيمة النتائج التي توصل اليها على هذا الصعيد لذلك انصبت جهوده بأستمرار على تعزيز هذه الحالة والحفاظ عليها ، وفي عملية التعزيز ادت كل وسائل الحضارة الاوربية واجهزة الاستعمار ادوارها ومازالت ، فتشجيع الثقافة التافهة غير الهادفة فيما يغرق الانسان العربي من نتاج ادبي وفني وثقافي سواء في الصحف او المجلات الجنسية او الافلام المفسدة للاخلاق والمشجعة على التحلل ، كذلك الاغراق بوسائل ومبتكرات (المودة) الحديثة ونشر المخدرات وترويجها وما تقوم به الاذاعات الاجنبية من ترويج للمدارس الثقافية غير الملتزمة اصبحت من الامور المألوفة التي تشكل عامل ضغط مستمر يشد الانسان الى حالة الهدم والتخلف التي بدأت مع عهود السيطرة الاستعمارية ، واصبح لها دورها الفعال في عزلة عن اي احساس وطني او قومي، لذلك وامعانا في الاغتراب الذي يعيشه الانسان العربي نجده حتى في حالات التفوق متنكرا لشعبه ولوطنه ينطلق من قيم فردية ، بل من رؤية لاتقيم وزنا لامر آخر فهو يريد ان يرتفع الوطن الى حيث يقف هو اما ان يشعر بأنه مسؤول وانه مطالب بتقديم مجهود في عملية التقدم هذه فهو امر لايخطر بباله طالما ان المناخ العام الذي يتحرك فيه يفتقد للاحساس بروابط الشعور بالمسؤولية تجاه قضاياه الوطنية والقومية فهو لاابالي فردي النزعة ضعيف الاحساس بالمسؤولية مادي الاتجاهات ضيق النظرة ، سلبي في مواقفه العامة ، ان انسانا بهذه الوضعية لايمكن ان يقدم القدرات التي تحتاجها قضية بلاده انه يفتقد الى الحيوية والحركية الفاعلة .

ان نجاح الاستعمار في طمس الانتماء القومي للانسان العربي جعل منه انسانا سهل الانقياد للافكار والايدلوجيات الطارئة والغريبة ، ووسم افقه وقدرته على التصور بالمحدودية ولاسيما في وقت اصبحت له مع التجزئة روابط سلوكية ونفسية ومصلحية ، بل اصبح ابن مناخها العام ، لذلك عندما تضع الانسان العربي في مراحل الانكسار والهزيمة امام الانسان العربي في مراحل النهضة والانتصار ، تجد الفرق كبيرا ، بل لايمكن تصوره بسهولة فثمة فرق لايقاس بين انسان يبايع على القتال حتى الموت وانسان يتشبث بالمستحيل لكي لايخدم العلم ٠

الاتجاه الثالث : العداء لفكرة القومية العربية

ظهر الاتجاه المعادي لوجود الامة العربية عندما اقترنت عملية القضاء على النمط الحضاري الخاص بها بعملية القضاء على شخصيتها القومية المتميزة فالنشاط الحضاري ليس هبة ولامحض مصادفة انه ناتج عوامل وظروف موضوعية احد ابرزها هو الانسان المتعامل مع تلك العوامل والظروف الموضوعية ، فالقضاء على نمط حضاري معين يستوجب القضاء على اداته، لهذا كان القضاء على النمط الحضاري العربي يستلزم بالضرورة ابادة العرب او فرض التخلف عليهم وتحويلهم الى كم غير نافع واخذت محاولات القضاء على القومية العربية شكل عدم اعتراف بوجود امة عربية تمتلك الشروط الابتدائية او المبتكرة الضرورية لوجود قومية وحتى عند القبول بفكرة وجود قومية عربية فأنها تجرد من اسسها التأريخية ومن تأريخيتها ويصور وجودها التأريخي في شكل مجرد دعوة خالية من المحتوى ومن الحركية اللازمة لتحققه ، لقد ركز الاستعمار وفي وقت مبكر على معاداة مقومات القومية العربية وذلك بأتخاذ طرائق شتى :

اولا : محاولة القضاء على اللغة العربية وهي المحاولات التي قادها الفرنسيون والانكليز والايطاليون والاتراك على السواء وبشكل مباشر ،

والمحاولة التي حاولها المستعمرون عامة بشكل غير مباشر من خلال تشجيع التعليم باللغات الاجنبية ، وتشجيع استخدام العامية ، وتشجيع لغات الاقليات على حساب اللغة القومية ، ادراكا منهم لقيمة اللغة العربية بالذات في تعزيز البناء الثقافي الواحد وتكوين النفسية الواحدة للامة ، ولتقدير خطورة ممارسات الدول الاستعمارية في هذا المجال ، نستعيد هذا الوصف لحياة الاسرة العربية في مصر « نجد في المنزل الواحد الام ذات ثقافة اميركية والاب ذا ثقافة عربية مصرية والابنة ذات ثقافة فرنسية والابن ذا ثقافة انكليزية ولكل منهم تفكيره الخاص واتجاهه الخاص»[1].

والواقع ان الخوف من اللغة العربية نابع من ادراك قيمتها، ومثل هذا الادراك ليس ابن القرن التاسع عشر ولكنه قديم ، فعندما قرر الخليفة عبدالملك بن مروان تعريب الدواوين لجأ الفرس في العراق والبيزنطيون في بلاد الشام الى الرشوة بمبالغ خيالية للحيلولة دون اتمام عملية التعريب هذه[2] انه الادراك نفسه الذي يجعل الجامعات في اوربا واميركا تدرس اللهجات العربية المحلية على انها لغات اساسية في محاولة لايجاد تنوع لغوي يفقد اللغة القومية قوتها وقيمتها ويسقطها .

ثانيا : طمس الوحدة الطبيعية للوطن العربي وصرف نظر المواطن عنها بطرق شتى وذلك بتجزئة الوطن ثم الحاق بعض اجزائه بأراضي خارج حدوده الطبيعية في محاولة لالغاء وحدته وشخصيته القومية واستبدالها بأمور مصطنعة ، كما فعل الاسكندر بتقسيم الوطن العربي الى ممالك يحكمها قواده ، والحاق بعض اجزاءه كالعراق والشام باراضي اخرى من خارج الوطن العربي،

---

١ ـ ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر ١٤٦ .

٢ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ٣/٦٧ ، ٦٩

وكما فعلت اوربا من خلال الاقتطاع التدريجي للاراضي العربية من الدولة العثمانية حيث كانت مقسمة على ولايات واخيرا من خلال اتفاقية سايكس ـ بيكو والحاق بعض الاراضي العربية بأراضي اخرى كما حصل للاحواز وغيرها او الاغتصاب وتغيير الواقع التأريخي كما هو في فلسطين ويخطىء من يعتقد ان التجزئة مجرد عملية تقسيم جغرافي فقط ، الا اذا كنا نقصد تثبيت التقسيم على الخارطة (على الارض) اما الواقع العلمي فالتجزئة كانت اشمل وكانت ممارسة علمية دقيقة استغرقت كل التفاصيل بحيث يصبح حاصل جمعها شيئا اسمه (واقع التجزئة) وهنا يصبح ضروريا التذكير بجهود لجنة (كامبل بنرمان) الاستعمارية ، فقد تحولت المدن التأريخية الى عواصم لوحدات جغرافية غدت مستقلة ، فبغداد اصبحت عاصمة العراق بعد ان كانت في التأريخ عاصمة الامة العربية والوطن العربي وكذلك دمشق والقاهرة وكان بالامكان ان تصبح كذلك مدينة البصرة لو نجح رأي الساسة البريطانيين في تحويل ولاية البصرة الى دولة مستقلة ، وهكذا .

ثالثا : الغاء الوحدة الاجتماعية للامة العربية واحداث تخلخل في بنائها النفسي ففي بداية الامر اصبحت الاجيال العربية اقواما مختلفة لاتجمعها صلة مشتركة او سمة عامة ولايقودها هدف ، ثم مارس الاستعمار عملية سحب التأريخ واستحضار الماضي واحتواء الواقع المعاصر من خلاله ، لذلك انصبت جهوده على محاولة بعث هذه الصورة في شكل معاصر عبرت عنه الدعوة الى الفرعونية في مصر، والبربرية في المغرب والفنيقية في لبنان ، بل تطور الامر الى حد تشجيع اقوام غريبة عن الوطن العربي لاتنحال اسماء اقوام عربية قديمة كتشجيع المبشرين البريطانيين للتيارية سكان ولاية حيكاري

في تركيا على انتحال اسم الآشوريين في القرن التاسع عشر وتهجيرهم الى العراق في اوائل القرن العشرين وكذلك تشجيع هجرة الزنوج الافارقة الى السودان وموريتانيا وايجاد مبرر الادعاء بالانفصال عن الوطن العربي ونرى الامر نفسه في تشجيع الهجرة الايرانية الى الخليج العربي . وقد تطورت المسألة الى ابراز الطائفية والبحث عن تفتيت جديد للامة بتشكيل كيانات طائفية تحول النظرة الى شكل العبادات الى خصائص اجتماعية وثقافية تبرر الانفصال .

ان هذه الممارسات تهدف الى هدم وحدة البناء القومي للمجتمع العربي عبر التاريخ والغاء سمة النقاء القومي لسكان الوطن العربي حيث ينتمي ٩٩٪ منه للعروبة واحداث تخلخل عنصري بتشجيع هجرة الاقوام الاجنبية قبل الحرب الاولى وبعدها وتوطينها في الوطن العربي ومنحها حقوقا تتحول مع الزمن الى عامل خلخلة عنصرية للبناء الاجتماعي .

رابعا : معاداة الوحدة العربية :

منذ ان اصبح التوحيد عقيدة عامة للامة العربية ، ارتبط بحياتهم الاجتماعية ، واصبح التوجه الى الوحدة سمة تسم الحركة التأريخية للامة العربية ، واصبحت الوحدة صيغة تطورهم التأريخي ، بل موقعهم الطبيعي في الكون ، ولقد اقام العرب نظامهم الاجتماعي (سياسيا واقتصاديا وثقافيا) على هذا الاساس، وكان طبيعيا عندما يرفض اعداء الامة التوحيد في المعتقدات الدينية ، ان يرفضوا امتداده في الحياة الاجتماعية ، فقد شجع اليونانيون والرومان والساسانيون تقسيم الوطن العربي سياسيا ، وشجعوا التفكك عن طريق تشجيع اقامة امارات ترتبط بهم ، والحيلولة دون نمو اي بؤرة تؤدي دورا في بناء كيان قومي يتمكن من توحيدهم فعندما

شعر الرومان والساسانيون ان الدولة الحميرية تسعى الى توحيد العرب وطرد الاحتلال ، كما عبرت عنه في تحركها العسكري والسياسي في القرن الخامس الميلادي على عهد ملكها ابي كرب اسعد[3] ، الى الاطراف الشمالية في الجزيرة العربية ، حيث تنتجت عن حركته امارة كندة ، اتجهت جهودها لاسقاط هذه الدولة، وكان الرومان اسرع عندما شجعوا حلفائهم الاحباش على غزو اليمن ، ولما نجح البطل القومي سيف بن ذي يزن في تحرير اليمن قام الساسانيون بتدبير مقتله وغزو اليمن والسيطرة عليه، ثم اتجهت جهود الطرفين نحو امارة كندة فشجعوا تفتيت كيانها الاجتماعي بأثارة العصبية القبلية •

لقد استمر هذا الخط عبر التأريخ وتجدد هذا التحالف عندما ظهر الاسلام ، وكان الرومان والساسانيون في حرب طاحنة ، فوضعا الحرب جانبا وبدأت ملامح هدنة هدفها اجهاض الحركة الجديدة المنطلقة من الجزيرة العربية •

استمرت حالة العداء للوحدة فمنذ ان ادركت اوربا الخصائص النوعية للامة العربية والمقومات الوحدوية لها اصبحت سياستها تتركز على محاربة الوحدة ، حاربتها في تجزئة الوطن العربي ، وفي احداث خلخلة في النقاء القومي للعرب، ثم مارست سياسيا عداءها للوحدة ،فشجعت سياسة التفرقة واستخدمت سياسة مضللة في صفوف الاقليات بهدف تعبئتهم تعبئة ثقافية تحقق سلخهم من انتمائهم القومي أو التأريخي وتدفعهم الى البحث عن وطن خارج الوطن العربي، وعن ولاء بديل للولاء القومي، وعندما لاحظت ظهور الحركة الوهابية، تدعوا الى التجديد والوحدة وتمتلك قيادة عربية لها رؤيتها العربية ، في وقت معاصر لظهور محمد علي في مصر، مستخدما المقومات الوحدوية لتحقيق

---

٣ ــ تاريخ الطبري : ١/٨٩٠ ، ٩٨٤

طموحاته الخاصة ، وقفت الدول الاوربية منه موقف المتفرج طالما انه يمارس ابادة الحركة الوهابية ، الى ان تم له ذلك فتصدت له وجردته من طموحاته ، ومن ثم من سعيه لتحقيق الوحدة خدمة لطموحه الخاص، ان تفسير هذا الموقف يكشف عن ادراك الغرب اين تكمن الخطورة الحقيقية في الواقع القومي العربي ، ومتى تكون الوحدة خطرا حقيقيا فلأن الدعوة للوحدة مرتكزة الى اداة عربية ، ووعي بخلفية تاريخية عربية ، وادراك عربي لمقومات الوحدة ، تركت محمد علي يقضي عليها بسعيه الوحدوي ، لانها لاترى فيه الخطر الذي يمثله التوجه الوحدوي الوهابي، فمحمد علي ليس عربيا، ومن ثم وعيه للوحدة وعي شخصي منطلق من البحث عن عوامل تحقق طموحه الشخصي، وتوجه محمد علي لتحقيق الوحدة يتم برؤية اوربا وخبرتها لذلك فهو ليس الخطر ، بل من الممكن استخدامه في القضاء على التوجه الوحدوي الحقيقي ثم تصفيته بعد ذلك ، وهو ماتم فعلا ومنذ ذلك الوقت اصبح هذا الاسلوب اسلوبا مبتكرا موظفا في محاربة الوحدة الحقيقية ، ومن المنطق نفسه شجع البريطانيون ولادة الجامعة العربية بديلا للهبة الوحدوية التي عبر عنها نضال الامة العربية قبل واثناء الحرب الثانية ، وضمن هذا السياق يأتي تقديم مشروع «الاتحاد» بديلا لمشروع « الوحدة العربية » ، والاتحادات الثلاثية والرباعية والبحث الهائم الطائش عن الوحدة كلها امور مقبولة طالما انها لاتعبر عن توجه جوهري ولاتؤدي الى بؤرة وحدوية حقيقية ، وفي هذا السياق يلتقي الغرب والشرق معا ، فعندما تكون ثمة تناقضات يقظة نشطة في الواقع العربي يكون السعي الى التفاهم هو شعار المرحلة تتبناه حتى القوى الكبرى ، وعندما تزال التناقضات ويحل محلها توجه وحدوي حقيقي تنكشف النوايا ويظهر العداء للوحدة .

ومن هذا المنطلق ايضا يعادي الشيوعيون في الوطن العربي والعالم الوحدة العربية ، ويصبح الواقع الذي صنعته اوربا الرأسمالية وارتضته الرجعية والاقطاع في الوطن العربي واقعا مقبولا يعمل الشيوعيون لتثبيته .

الاتجاه الرابع : العداء للمستقبل العربي

يعتقد الكثير من المتتبعين لتطور الجهود الاوربية المعادية للامة العربية ، ان تلك الجهود عالجت اوضاعاً معينة في زمنها وحسمت امر مصالح اوربية كانت مهمة لاوربا في ذلك الوقت . ولهذا الاعتقاد مخاطره المتعددة وبشكل خاص على شكل المجابهة المطلوبة لاوربا ، لكن ابرز مخاطره ما بدا للبعض وهما ما طرحه قادة الحركات السياسية في الكثير من اقطار الوطن العربي على انه شعارات حركة استقلال ونجم عنها تحديد حركة التحرر القومي بمستوى من الاهداف ترتب عليه بقاء وعي الجماهير عند مستوى معين ، وكلاهما لايرقى الى مستوى المعالجة الجدية المطلوبة لطبيعة الجهود الاوربية المعادية ، بسبب كونها معالجات محدودة لمشاكل افرزتها آنيا السياسات الاستعمارية .

صحيح ان الجهود الاستعمارية حدثت في زمن مضى غير ان طبيعتها المستقبلية واضحة للعيان فالتجزئة التي انجزتها اوربا في القرن التاسع عشر وقننتها في القرن العشرين بنظام الانتداب كانت نوعا من تنظيم المصالح التي عملت لتحقيقها ، غير انها كانت صيغة لتأمين مستقبل تلك المصالح ايضا ، وفي بعد اشمل واعمق كانت وسائل اجرائية تمارس في الجسم القومي العربي لابحدود عمره الزمني (القرن العشرين) انما بكل مستقبله . تتكشف طبيعتها العدوانية المستقبلية على مراحل : فمنع تحقيق مستقبل قومي وحدوي للأمة العربية يهدد الهيمنة الاوربية السياسية ، يترتب عليه تعطيل نمط حضاري جديد يهدد النمط الحضاري الاوربي ، وهدم البناء النفسي والاخلاقي للانسان العربي يخربه ويفرض عليه الهزيمة آنيا ، ويلجم ايضا عملية بناء انسان عربي مستقبلا ، فالصراع بيننا وبين اوربا يجب ان لاينظر له على انه صراع على شيء قائم فقط انما صراع لمنع قيام شيء جديد ايضا ، للحيلولة بين الزمن العربي وبين مفاجأة غير محسوبة . والواقع ان عدم ادراك الساسة العرب او حتى الحركات السياسية التي ظهرت منذ اوائل القرن العشرين ، هذه الحقيقة ابقى المواقف العربية دونما تقدم على طريق تحقيق اهدافها ، وفرض الضمور

على الكثير من الحركات السياسية ، كما انه جعل اوضاع الساسة العرب قلقة دائمة التغيير .

لقد ادرك حزب البعث العربي الاشتراكي هذه الحقيقة بتفاصيلها الخاصة التي تحدد طبيعتها ، او تلك التي حددت طبيعة المواقف المضادة لها وتوقف مليا عند تناقضات الواقع القومي سواء ما يتعلق بتناقضات ذاتية او موضوعية افرزتها حركة التطور التاريخي للامة العربية او تناقضات تسببت بها المرحلة الاستعمارية وتوقف عند الحركات السياسية في الساحة العربية ، وكان التصور منذ البداية ان المسألة تحتاج الى وعي اعمق واشمل ، تحتاج تجاوز الوقوف عند ظاهرة الاساطيل الاوربية المهددة للشواطيء العربية ومشاريع ملىء الفراغ ومعارك الامتيازات وتجاوز الوقوف عند اشتراكية الخبز وهذا النظام وذاك الرئيس وارجاع هذه التفاصيل الى سياقاتها وتتبع السياقات الى منشأها واستيعابها ، ومن هنا جاء خياره في ان يكون حركة انبعاث حضاري لها ايديولوجيتها وطريقها القومي ولها ذراع القوة الخاص بها (الحزب) أي تأشير اساس المجابهة الحضارية لاوربا واتاحة المجال للانبعاث الحضاري لاختيار اسلوب المجابهة (الحزب الثوري) وتحديد ستراتيجية المجابهة (الوحدة) ازاء التجزئة و (الحرية) ازاء القهر و (الاشتراكية) ازاء التخلف ، لذلك اصبح ضروريا ان تاخذ المجابهة مع اوربا شكل (نضال قومي)وان يكون هذا النضال في ذات الوقت لدفع اخطار سياسات انية ومجابهتها ومنع نتائج مستقبلية تعززها تلك السياسات او تخطط لها ، اي النضال في مساحة زمنية هي الزمن العربي القائم بشكل مباشر لكن لها مرونة الحركة نحو الماضي .. نحو المستقبل فالمستقبل من وجهة نظر بعثية ليس زمن حسابي ولا حدث في الزمن الاتي انما هو الامة العربية عندما تكتمل صورتها وبما ان الحزب اشر الملامح الاساسية لهذه الصورة في عقيدته وتنظيمه ونضاله وحياته الداخلية ، فالنضال القومي نضال من اجلها وليس نضالا من اجل حقوق انية في الاستقلال. هذا الطرح الحضاري لازمة الامة العربية هو الذي شكل صلب ستراتيجية

المجابهة مع اوربا وهو سر قوة الحزب ونجاحه في معاركه وهو سر تاريخية الحزب • لقد ظهرت مصداقية هذا الطرح في اروع صورها في الحرب العراقية الايرانية عندما ارتفع وعي الجماهير لادراك الطبيعة العدوانية للنظرة الفارسية العنصرية التي ينطلق منها العدوان ، ولو ان العراق توقف في وعيه عند حدود تفاصيل العدوان التقليدية التي طرحتها ايران لما تحقق له ما تحقق ولكن الستراتيجية التي جوبه بها العدوان والكشف الدقيق لمنطلقات الهجمة السوداء وتوجهاتها المضادة لحركة القومية العربية وللتاريخ القومي وللاسلام باعتباره اعلى مراحل الثورة فيه هو الذي عبأ الموقف الجماهيري وفوت على ايران فرصة استخدام العدوان في القضم التكتيكي للعراق جغرافيا وبشريا وسياسيا كما كان يحدث سابقاً وقبل قيام النظام الثوري في العراق •

ان هذه الصيغة في فهم ستراتيجية الاستعمار لم تهدد مخططاته المباشرة فقط انما بدأت تقلص فرص هيمنته الايديولوجية فالخيار القومي المستقل في تحقيق التقدم كما يعبر عنه نشوء الحزب يقدم تجربة للعالم الثالث في كيفية صنع التقدم مع الاحتفاظ بالاصالة • وهذا ما يفسر لنا تعرض الحزب لحملات المجابهة الايديولوجية المعادية ويفسر التقاء الخصوم ضد الحزب في مواقفه ومعاركه •

بدأ البعد المستقبلي لستراتيجية اعداء الامة العربية يعلن عن نفسه في السياقات التي اشرتها توجهات لجنة كامبل بنرمان • فالتجزئة التي ارسيت وفق تصور افقي (على اساس الاقليم) بدأت تتطور الى تجزئة عمودية في ثلاثة اتجاهات :

١ • تكريس التجزئة على اساس الاقليم من خلال تعزيز تفاصيلها •

٢ • تجزئة الاقليم الى وحدات جغرافية اصغر تتوافق مع تجزئة بشرية على اسس طائفية •

٣ ـ تجزئة عمودية ثقافية تتعرض بالدرجة الاولى للتاريخ من خلال السعي لايجاد عمق تاريخي للكيانات القائمة او لمشاريع التجزئة المقبلة ، والضرب في الاسلام من الداخل في ذات الوقت الذي يضرب من الخارج كما ان الالتزام السياسي بين الكيان الصهيوني والقوى الاوربية اصبح التزاما ستراتيجيا ، يستخدم في فرض الانكفاء على الامة العربية ومنع تقدمها وفي هذا السياق يمارس الكيان الصهيوني دور الموقع المتقدم في تنفيذ السياسات المعادية للامة العربية وقد بلغ ذروته في ضرب المفاعل النووي العراقي المكرس للاغراض السلمية ويظهر في الستراتيجية المعادية للامة العربية الدور الخطر الذي تلعبه ايران ، ويذكر هذا بالاعداد الاوربي لايران من اجل ان يكون لها دور فعال في تنفيذ السياسة الاستعمارية[1] ، غير ان هذا لايعني كل الجوانب والمفاجأت التي تحويها الستراتيجية المعادية ، فثمة مؤشرات عن ادوار لقوى دولية تابعة في الخليج العربي ، ولاعادة تخطيط بعض اقسام آسيا الغربية ، كما ان المؤشرات واضحة عن ادوار لقوى دولية تابعة في افريقيا اضافة الى دور الحبشة . وهناك تحديات خطيرة في مجال الامن القومي العربي والثقافة بشكل خاص تؤشرها الهيمنة على الفضاء الخارجي ودور التكنلوجيا في اختصار المسافات ، ومغادرة الوسائل التقليدية المتبعة في تأمين المصالح، والضخ الثقافي .

ما هو المستقبل في ضوء هذه التحديات ؟

عندما يكون هناك تهديد فالدفاع يبدأ بفهم العدو والوعي بالامكانيات المتاحة وكيفية توظيفها ومتابعة زيادة القدرة على الدفاع . اما عن العدو فقد توفر مايكفي لفهمه غير ان المشكلة في وعي الامكانيات دون البحث عن الجوهر الذي يضعها في معدلات قدرة اعلى . والامكانية القومية تبدأ بالحشد القومي وكما في تجربة الرسول القائد (ص) الحشد ليس جمع القبائل انما

---

١ ـ انظر نزار الحديثي : العلاقات العربية الفارسية ، دراسة تأريخية .

توحيدها لتهيئة الحشد المطلوب وخلق بديل للتشتت والتشـرذم اولا ، اي تغيير منطلقات ومناخ حركة الانسان • لقد تعرضت الامة العربية الـى تهديد اوربي سابق (الحروب الصليبية) وحقق الصليبيـون نجاحات كبـيرة ليس بسبب تفوقهم ولكن بسبب قصور المعالجة العربية اما عندما ادرك الامـراء الزنكيون الفرق بين تجميع قوى الامارات وتوحيد الامة ووحدوها فعلا فانهم صنعوا المعسكر الذي وظفه صلاح الدين الايوبي في طرد الصليبين فتحقق لـه ذلك • ان احد اهم المبادىء العسكرية منذ ظهرت فكرة الجيـوش في تاريخ الوطن العربي القديم مرورا بأيام العرب والعصور الاسلاميـة الى حـروب الصحراء العربية في التاريخ الحديث هو كيف تعبىء القوة وكيف تضعها الموضع الصحيح • فالوحدة هي التي تضع الامة العربيـة في موقعهـا الصحيح مـن نفسها ومن العالم غير ان هذه الوحدة يجب ان لاتكون مجردة فتجربة الرسول الكريم (ص) انبأتنا بأن الوحدة جزء من تغيير شامل في الامة يتجاوز بها وضعها القائم الى صورة جديدة تنسجم مع عصرها وترتكز الـى اصالتهـا • لتمتلك زمام امورها فلا تنظر الى ماحولها من زاوية محددة أنما ترى نفسها وما حولها والكون وتدرك ابعاد حركة الزمن ، فالوحدة وحدة امة واذا كانت الوحدة تمثل حق الامة في ان تحتل موقعها الطبيعي ، فلها حقوق اخرى حق الابداع، وحق التقدم اي الحق في مستقبل خاص بها والمستقبل لايتحقق بصورة آلية ذاتية انما بطريقة تحويلية ثورية تتحقق بالنضال وليس بالتمني والانتظـار •

المصـــادر

اولا ـــ الكتب

١) ارشيدات : شفيق
فلسطين تأريخاً وعبرة ومصيرا ، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة ، بيروت ١٩٦١

٢) امرسن : روبرت
من الاستعمار الى الاستقلال ، ترجمة نيقولا الدر ، الـدار الشرقيـة للطباعة ـــ والنشر ، بيروت ١٩٦٤ .

٣) باقر : طـه
مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، دار المعلمـين العاليـة ـــ بغـداد ١٩٥٩م

٤) توينبي : ارنولد .ج
بحث في التأريخ ، ترجمة طه باقر ، وزارة المعارف ـــ بغداد ١٩٥٥

٥) جارودي : روجيـه
حوار الحضارات ، ترجمة الدكتور عادل العوا ، دار عويدات بـيروت

٦) بن جلون : عبدالمجيـد
هذه مراكش : مطبعة الرسالة ، القاهرة، ١٩٤٩
١٩٧٨م

٧) الجندي : انور
تطور الصحافة في مصر ، مطبعة الرسالة ١٩٧٢

٨) جوليان : شارل اندرى
افريقيا الشمالية تسير ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٦ ، ترجمة مجموعة من الاساتذة ٠

٩) جوليان : كلود
الامبراطورية الامريكية ، دار الحقيقة بيروت ، ١٩٧٠ ، ترجمة الدكتور فؤاد شاهين ، ناجي ابو خليل ٠

١٠) الحديثي : د نزار عبداللطيف
- العلاقات العربية ـ الفارسية ، دراسة تأريخية ٠ دار واسط للدراسات والنشر ، بغداد ١٩٨٢ ٠
- الحدود الشرقية للوطن العربي ، دراسة تأريخية ، جمعية المؤرخين والاثارين في العراق بغداد ١٩٨١ « وآخرون »

١١) حقي : احسان
المغرب العربي ، دار اليقظة العربية

١٢) حوراني : البرت
الفكر العربي في عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ، دار النهار للنشر

١٣) الخطاب : الدكتورة رجاء حسين حسني
تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره في الحركة الوطنية من ١٩٢١ الى ١٩٤٩ ٠ دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٩ ٠

١٤) الخولي : حسن صبري
سياسة الاستعمار والصهيونية اتجاه فلسطين ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣ ٠

١٥) رمضان : عبدالعظيم
صراع الطبقات في مصر ، ١٨٣٧ ــ ١٩٥٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨

١٦) ريازانوف
محاضرات في تاريخ الماركسية ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة، بيروت ، ١٩٧١

١٧) الزعبي : محمد علي
حقيقة الماسونية ، معتوق اخوان ، بيروت، ١٩٧٤

١٨) شيفر ، بويد
القومية عرض وتحليل ، ترجمة الدكتور جعفر خصباك ــ عدنان الحميري ، دار مكتبة الحياة بيروت ــ مؤسسة فرنكلين ، ١٩٦٦

١٩) طـه : جاد
سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٦٩

٢٠) الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠

٢١) عبدالحسين ، محمد
المعارف في العراق ، المكتبة العصرية ، بغداد ، ١٩٢٢

٢٢) عبدالحميد : محسن
حقيقة البابية والبهائية ، بيروت ، ١٩٧٥

٢٣) عبدالكريم : سمير
اضواء على الحركة الشيوعية في العراق ، دار المرصاد ، بيروت

٢٤) عفلق ، ميشيل
البعث والتراث ، دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد، ١٩٧٦

٢٥) عقاد ، صلاح
المغرب العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦١

٢٦) علي ، محمد كرد
رسائل البلغاء ، قاهرة ، ١٩٤٦ (بضمنه كتاب ابن قتيبة)

٢٧) عوف ، احمد محمد
خفايا الطائفية البهائية ، دار النهضة العربية ــ مصر ١٩٧٢

٢٨) عيسى ، صلاح
الثورة العرابية • المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢

٢٩) الفاسي ، علال
الحركات الاستقلالية ، المغرب العربي ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٤٨ •

٣٠) فروخ ، عمر ، مصطفى الخالدي
التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٣

٣١) الفقي ، حسن
التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٤

٣٢) فهمي ، اميل
التعليم الحديث ، دراسة وثائقية ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧

٣٣) كنعان ، انطوان سليم
« فلسطين والقانون » كتاب المؤتمر الثالث لاتحاد المحامين العرب، دمشق ، ١٩٥٧

٣٤) الكواكبي ، عبدالرحمن
الاعمال الكاملة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٥

٣٥) كريستنسن ، ارثر
ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧

٣٦) لامب : هارولد •
شعلة الاسلام ، ترجمة محمود عبدالله يعقوب (مكتبة دار المتنبي، بغداد ، ١٩٦٧)

٣٧) لاندو ، روم
تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة نيقولا زياد ، دار الكتاب العربي المغرب ١٩٦٣

٣٨) لينين ، ف•أ
ـ نصوص حول المسألة القومية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٢ ، ترجمة جورج طرابيشي •

ـ مصادر الماركسية الثلاثة (دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية ، موسكو)

٣٩) المبــــرد
الكامل في الادب (القاهرة ١٣٥٥ هجري)

٤٠) المطوي : محمد العروسي ، الحروب الصليبيــة في المشرق والمغــرب (دار الغرب الاسلامي ، بيروت) •

٤١) المقريزي
المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار غاستون ويب • ١٩١١

ثانياً ـ الوثائق والاصدارات الخاصة

١ ـ الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ وزارة الداخليـة ، محل دنكـور للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٣٦

٢ ـ القانون الاساسي العراقي، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٣٧

٣ ـ محاضر جلسات مجلس الاعيان

٤ ـ مركز البحوث والمعلومات ـ العراق ، وثيقة العلماء السوفيت

٥ ـ الموسوعة السرية للحزب الشيوعي العراقي السـري ، دائرة التحقيقات الجنائية ، بغداد

٦ ـ وزارة الخارجية العراقية ، مجموعة الاتفاقيات والمعاهدات الثنائية بين العراق وبريطانيا .

ثالثا ـ الدوريات والصحف

١ ـ جريدة اتحاد الشعب (العراق)

٢ ـ جريدة الدستور ، (الاردن)

٣ ـ جريدة الشرق الاوسط ، (لندن)

٤ ـ قضايا عربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت)

٥ ـ جريدة اللواء (بيروت)

٦ ـ مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٤٨ .

٧ ـ الهلال (مصر)

٨ ـ الوطن العربي (باريس)

المحتويات

رقم الايــداع في المكتبــة الـوطنيـة ببغـداد ٢٦٨ لسنـة ١٩٨٥

دار الحرية للطباعة - بغداد

السعر ٥٠٠ر٢ دينار
دار الحرية للطباعة بغداد